









قِيَامُكَوْنِ الْمَالِ الْإِلَهِيَّةِ الثَّانِيَّةِ

المكتبة العربية

تصدّرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

ع. م. ك.



وزارة الشؤون الخارجية

Flav. 100- 100/1000. 100/1000. 100/1000.

قِيَامُكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ الثَّانِي

تأليف
الدكتور حكيم أمين عبد السيد

تقسيم: الدكتور محمد مصطفى زيادة

رقم
الهيئة العامة للغذاء والدواء
رقم الترخيص
962-0
ع ١٠٠
CA 1113
رقم التسجيل

النشائي: الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

تقسيم التاريخ المصرى القومى إلى عصور متولدة بعضها من بعض ، ثم إلى دول منسلخة بعضها من بعض ضرورة عملية عامة لفهم التاريخ كله .
وموضوع هذا الكتاب دراسة جديدة فى أصول دولة من هذه الدول فى مصر ، وهى دولة سلاطين المماليك الثانية أو دولة المماليك الجراكسة على قول المؤرخين السالفين مع بحث جديد كذلك فى قيام هذه الدولة فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، حين كان خطر تيمورلنك وجنوده مندرأ بالهجوم على الشرق الأوسط كله .

وهذا الكتاب الجديد محدود بعنوانه ، ولذا تركزت فصوله فى بحث جذور هذه الدولة وحوادث نموها وقيامها فحسب ، فاشتمل الفصل الأول منها على وصف هذه الجذور التى ترجع إلى تكوين فرقة المماليك البرجية أيام السلطان قلاوون ، زمن الدولة المملوكية الأولى ، وهى المعروفة كذلك باسم دولة المماليك الأتراك . والمعروف أن هذا السلطان قلاوون حرص على أن تكون هذه الفرقة المملوكية الجديدة من الجراكسة لا من الأتراك أو غيرهم من الأجناس المملوكية الأخرى . واستطاع المؤلف أن يبرهن على ذلك كله بدراسة دقيقة لتراجم الشخصيات المملوكية الجركسية فى أثناء الدولة المملوكية الأولى وأن يستخرج منها بعض عناصر النمو التى أدت إلى قيام هذه الدولة المملوكية الثانية .

وفى الفصل الثانى من هذا البحث تتبع المؤلف محاولات الأمير الجركسى برقوق فى سبيل إزالة سلطان المماليك الأتراك وذراريهم وإقامة المماليك الجراكسة أخيراً مكانهم فى الدولة المملوكية فى مصر والشام ، وذلك بإعلان نفسه سلطاناً بالقاهرة ودمشق سنة ١٣٨٢ م .

ثم اشتمل الفصل الثالث على بداية حكم هذا السلطان الجركسى الجديد ، ومحاولة خلعهم ، وإحلال الخليفة العباسى المقيم بالقاهرة محله ، وهو ما أدى إلى كثير من القلق الداخلى .

وشغل هذا القلق الداخلى صفحات الفصل الرابع ، حيث أوضح المؤلف مدى إيمان السلطان برقوق فى سياسته العنصرية الجركسية ، ونجاحه فيها ضد بقايا المماليك الأتراك .

وانتقل المؤلف من هذه المرحلة التكوينية الناجحة إلى موضوع المشكلات الخارجية

التي واجهت الدولة الجديدة ، وأولها ظهور تيمورلنك ، وتهديد ذلك العملاق لسلطان برقوق ولكيان دولة المماليك الثانية ، وزحفه نحو الشام المملوكية ، واستيلائه المشهور على دمشق . ثم جعل المؤلف حوادث الاحتلال التيمورى لدمشق بداية موضوع الفصل الخامس ، الذى اشتمل كذلك على مراحل العلاقات الأخرى بين الدولة المملوكية الثانية وجيرانها من العثمانيين وغيرهم فى الشرق الأوسط ، زمن السلطان برقوق وابنه السلطان فرج حتى سنة ١٤١٢ م ، وهى السنة التى توفى فيها هذا السلطان الثانى والتى ينتتم بها هذا البحث .

وسوف يلتمس القارئ مدى جهود المؤلف فى تنسيق هذا البحث ، ولا سيما حين يصل إلى مجموعة الوثائق العربية والفارسية المخطوطة والمطبوعة الخاصة بعلاقات تيمورلنك بالسلطان برقوق وابنه فرج ، إذ تدل هذه الوثائق على أن هذه الدولة المملوكية الثانية أدت خدمة جليلة فى التاريخ المصرى القومى بإيقاف الخطر التيمورى عند حد معلوم .

محمد مصطفى زيادة

مقدمة المؤلف

موضوع « قيام دولة المماليك الثانية » يمثل جانباً هاماً في تاريخ المماليك في مصر وسورية ، وموضوع الأهمية يتضح في نواح ثلاث :

الأولى ؛ أن دولة المماليك الثانية قامت على أسس تخالف الأسس التي قامت عليها دولة المماليك الأولى — وإن اشتركت معها في بعض اتجاهاتها — إذ اتخذ أصحاب هذه الدولة العنصرية سراحاً لإزالة دولة المماليك الأولى ثم استمرت العنصرية إطاراً عاماً لسياساتهم الداخلية وميزة واضحة لدولتهم ، بل امتزجت هذه النعرة بدمائهم حتى بعد سقوط دولتهم في أيدي العثمانيين . وبلغ من شدتها أنه لم يكن في وسع العثمانيين العمل دونهم فأشركوهم معهم في الحكم .

أما الناحية الثانية لأهمية دراسة الموضوع فتظهر في مدى ما أحدثته هذه العنصرية العنصرية الوافدة من آثار في نفوس المماليك الترك ، وفي مدى إظهارها للمحاولات العربية المختلفة للوصول إلى الحكم بعد أن نجح برقوق في نقل السلطنة إليه .

والناحية الثالثة تكمن في السياسة الخارجية لمؤسس هذه الدولة ، هذه السياسة التي نتج عنها احتلال دولة المماليك الثانية لمركز الصدارة في الشرق الأوسط ، فضلاً عن تبوؤها زعامة العالم الإسلامي سياسياً وثقافياً برغم ما طفحت به من مؤامرات وفتن .

وهكذا نلاحظ أن وضع المماليك الذين حكموا القاهرة في قائمة دولة واحدة أمر أصبح في حاجة إلى إعادة نظر ، بسبب ما بين الدولتين من اختلاف في الاتجاه العنصري وفي طريقة قيام كل منها ، وفي نظم الحكم والإدارة كذلك .

ولا شك أن الاختلاف العنصري صفة هامة ، لاسيما أن تيار الاتجاه العنصري أخذ في الظهور منذ عهد دولة المماليك الأولى ، حين تكتل الجراكسة في فرقة المماليك البرجية ، وحاولوا طوال القرن الرابع عشر الميلادي الوصول إلى الحكم . حتى إذا نجحوا في هذا الأمر في عهد الناصر محمد ، كان لهذا النجاح نتائج الوخيمة عليهم ، إذ حلت النكبات بفرقة البرجية ، وصار مرجع هذا كله ما اتجه إليه الجراكسة من التعصب لعنصرهم .

على أن سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد في أواخر دولة المماليك الأولى ، وما صحبه من ضعف سلاطين هذه الفترة ، وسيطرة كبار الأمراء على الحكم حتى تشبهوا بسلاطينهم ، فجلبوا أعداداً كبيرة من المماليك وفتحوا الباب أمام الوافدية من الجراكسة وغيرهم للقدوم إلى مصر في وقت قل فيه جلب المماليك الترك بسبب الإغارات المغولية على أواسط آسيا ، مهد هذا كله للجراكسة لمحاولات جديدة للاستفادة من ضعف الدولة المملوكية الأولى في تأييد مركزهم .

ومع أن المملوك برقوق الجركسى لم تكن تجرى في عروقه دماء سلطانية ، فإنه استطاع أن يضع خطة للقضاء على دولة بني قلاون ، وقضى بذلك على فكرة الوراثة في هذا البيت ، ونقل السلطنة إلى الجراكسة بطريقة وضحت فيها الاتجاهات العنصرية العنصرية التي لم تفارق طبيعة الجراكسة أبداً .

ولنجاح فكرة الجراكسة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي نتائج بعيدة المدى إذ أدى إلى تيار من الهجرات الجركسية إلى مصر طوال دولة المماليك الثانية ، وصار هؤلاء الجراكسة أثر كبير في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وألهم تعصبهم الثورات العربية في هذا العصر للمطالبة بالحكم . ولم يقف نفوذ الجراكسة في مصر حتى بعد الفتح العثماني لها ، بل صاحبتهم نعرتهم العنصرية في تاريخ مصر الحديث .

وضع برقوق لدولة المماليك الثانية اتجاهات واضحة ، فوقف في وجه المغول والصليبيين ، واحتفظ بزعامة دولته للعالم الإسلامي ، وأكد صداقتها مع الدول التي لها معها مصالح أدبية أو مادية .

غير أن تتبع الناحية العنصرية لم يكن أمراً سهلاً لكثرة الشخصيات التي ظهرت على مسرح السياسة في دولة المماليك الأولى . وأعاني على تتبع أصول هذه الشخصيات المصادر التي ترجمت لأعيان هذا العصر مثل « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » لابن تغرى بردى ، « أعيان العصر وأعوان النصر » ، « الوافي بالوفيات » لصلاح الدين بن خليل الصفدى ، « عيون التواريخ » للكتبي وغيرها مما ورد في حواشى البحث .

على أن متابعة الاتجاهات العنصرية وقت قيام دولة المماليك الثانية لم تكن واضحة في كل المصادر ، ولكنني تمكنت من الوقوف عليها وعلى دوافعها ونتائجها من بعض المؤرخين. الذين امتازوا بالدقة في كتاباتهم وفي مقدمة هؤلاء المقرئى في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وابن تغرى بردى في « النجوم الزاهرة » ، « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » وابن الفرات في « تاريخ الدول والملوك » كما وجدت بعض النصوص في « الدرر الكامنة » ، في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، وقد أوضحت هذه

النصوص لإحساسات الترك في دولة المماليك الأولى ومدى خوفهم من سيطرة العنصر
التركسي .

على أنني لم أستطع العثور على ترجمة قائمة بذاتها للسلطان برقوق برغم أن ابن
دقماق كتب عنه « عقد الجواهر في تاريخ الملك الظاهر » إذ يبدو أن هذه السيرة فقدت
كما أن بروكلمان لم يذكر عنها شيئاً . وبرغم أن ابن دقماق ذكر في الجزء الثاني من
مخطوطه « الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين » أنه كتب تاريخاً مفصلاً للحوادث التي
دارت وقت قيام دولة المماليك الثانية في الجزء الثاني من كتابه ، « نزهة الأنام في تاريخ
الإسلام » فإن هذا الجزء لا أثر له بين مخطوطات دار الكتب بالقاهرة أو غيرها ، واتضح
أن النسخة المعنونة بالجزء الثاني من نزهة الأنام برقم ١٧٤٠ تاريخ بدار الكتب بالقاهرة
ليست سوى قطعة من « الجواهر الثمين » للمؤلف نفسه ، ولم يكن ثمة بد من الاعتماد على
كتابات ابن حجر العسقلاني ، وابن تغري بردي ، وابن الفرات ، وابن الخطيب .
فيما ذكره مفصلاً عن قيام دولة المماليك الثانية وحكم السلطان برقوق . وتعتبر
مخطوطة ابن الخطيب « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان » وثيقة مهمة لقيام
دولة المماليك الثانية وتاريخها حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي .

على أن المراجع الغربية المعاصرة التي كتبت عن حياة برقوق أضافت بعض
المعلومات التي أهملها كتابنا . ومن مؤلفي هذه المراجع الغربية Bertrand Mignanelli
الذي عاش في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر وتنقل في الشرق
وكتب عن حياة السلطان برقوق بعنوان l'Ascencus Barcoch ومن هذا الكتاب
توجد نسخة بمكتبة جامعة فيينا ونقل عنها Iorga في كتابه Notes Et Extraits Pour
Servir A l'Histoire Des Croisades T. II.

أما عن حكم السلطان برقوق وابنه فرج وما حدث فيه من تطور شمل نظمه
فقد احتوت موسوعة العيني « عقد الجمان في تاريخ ملوك الزمان » كما احتوى « ذيل
تاريخ الإسلام أو الإعلام بتاريخ الإسلام » لابن قاضي شهبة معلومات طيبة عن حكم
السلطان برقوق . أما ما أحدثه في نظم الحكم والإدارة فيأتي في مقدمة المصادر التي
استعنت بها « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » للقلقشندي وكذلك « المواعظ والاعتبار
في ذكر الخطط والآثار » للمقريزي .

واستكملت دراسة الموضوع ببحث موقف جيران دولة المماليك الثانية حين
عرضت له مع المقارنة بين وجهتي نظر كتاب دولة المماليك الثانية وكتاب الدول
المجاورة . فمن ناحية موقف المغول استعنت بكتابات الفرس مثل « ظفر نامه »
لعلی شرف الدین علی یزدی والذي نقله إلى الإنجليزية Darly ، وما كتبه خواند امير
« كتاب حبيب السير » وميرخواند « كتاب روضة الصفا » وهو مخطوط بجامعة القاهرة .

ومع أن هؤلاء الكتاب مالوا إلى تعظيم تيمورلنك إلا أن كتاباتهم لم تتصف بالمغالاة . ومع هذا قابلتها بكتابات ابن تغرى بردى والبسطامى والسلاوى الواردة بالخواشى . ولكتاب ابن خلدون « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » قيمة طيبة في شرح أحد مواقف تيمورلنك . وقد نشره محمد بن تاويت الطنجى كما نشر Fischel في كتابه *Ibn Khaldoun And Tamerlane* جزءاً من التعريف وهو الجزء الخاص بمقابلة تيمورلنك مع جيش السلطان فرج والبعثة المملوكية التى بعث بها الأمراء للصالح مع تيمورلنك . ومع هذا فإن ابن خلدون لم يتناول تفصيلات كالتى أوردها المقرئى أو ابن تغرى بردى أو العيني ..

ثم عرضت للعلاقات الخارجية مع العثمانيين مستعيناً بما ورد في متون المصادر السابقة مع مقابلتها بآراء كتاب الغرب أمثال *Oman* في كتابه *The Byzantine Empire* ، *Gibbons* في كتابه *Foundation Of The Ottoman Empire* ، أما موقف الفرنج من دولة المماليك الثانية فلعل أهم مصدر معاصر هو كتاب *l'Egypte Au Commencement Du Quinzieme Siècle* الذى كتبه *Piloti* ونشره *Dopp* ، ويملوئى هذا تاجر كريتى عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر . ومع أن كتاباته خلت من ذكر شيء عن برقوق فإنه فصل الحديث عن علاقة الفرنج بالسلطان فرج .

وفي علاقة دولة المماليك الثانية بالمغرب عثرت في كتاب « التعريف بابن خلدون » على خطاب ودى من السلطان برقوق إلى سلطان تونس لإرسال أولاد ابن خلدون الذى عزم على الإقامة في مصر . وأضفت عن السلاوى في كتابه « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » . معلومات عن أحوال بلاد المغرب وقتذاك .

وتضاف إلى قائمة المصادر الأساسية كتاب « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » للفاسى و « درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » للخزرجى — (عبد القادر بن محمد) ، « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » للخزرجى (أبو الحسن على) ، وهذه فصلت الحديث عن علاقة دولة المماليك الثانية بمكة واليمن .

وأحب أن أسدى شكرى العظيم إلى أستاذى الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى أشرف على هذا البحث إشرافاً علمياً دقيقاً ، في روح أبوية مملوءة بالعطف الصادق الذى أحس به كل من تتلمذ على يديه .

والله الموفق

حكيم أمين عبد السيد

الفصل الأول

أصول دولة المماليك الثانية

بداية تكوين فرقة المماليك البرجية زمن قلاوون - الجنسية
البركسية الغالبة بينهم - العناية الخاصة بهم - اقامتهم في
أبراج القلعة وطباقتها - عدد هذه الفرقة - ازدياد عددهم زمن
السلطان خليل بن قلاوون - التغيرات الجديدة في تربيتهم -
موقفهم من مقتل خليل سنة ١٢٩٣ م - علاقتهم بسلطنة
الناصر محمد في تلك السنة - انضمام البرجية الى الوزير
الشجاعى ضد نائب السلطنة كتيبا والمماليك الترك - خلع
الناصر محمد وسلطنة كتيبا المغول سنة ١٢٩٤ م - معارضة
البرجية للسلطان كتيبا - سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦ م - معارضة
البرجية للسلطان لاجين وقتله على ايديهم - اعادة الناصر
محمد الى السلطنة سنة ٦٩٨ هـ (سنة ١٢٩٨ م) - ازدياد
نفوذ البرجية في الجيش المملوكى - اثرهم في سلطنة بيبرس
الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ - سنة ١٣٠٧ م - ازدياد المماليك
الجراكسة في صفوف البرجية - المنافسة بين المماليك الجراكسة
والمماليك الترك واعادة الناصر محمد على ايدي المماليك
الترك - اضطهاد الناصر محمد للجراكسة في سلطنته
الثالثة - ثورات الجراكسة زمن السلطان شعبان بن الناصر
محمد سنة ١٣٤٥ م - حركاتهم ضد الترك زمن السلطان
حاجى بن الناصر محمد سنة ١٣٤٦ م - ازدياد نفوذ الجراكسة
زمن السلطان حسن سنة ١٣٤٧ م - انضمامهم الى جانب
أخيه أمير حسين - ظهور الأمير يلبناس التركى العبرى واقتناؤه
المماليك الجراكسة - انقسام اليلبناوية ومقتل يلبناس سنة
١٣٦٧ م - النزاع بين اليلبناوية وبين السلطان شعبان بن
حسن وطرد اليلبناوية من مصر سنة ١٣٦٨ م - ظهور برقوق
الجركسى - انضمام بقايا اليلبناوية بالقاهرة الى جانب
السلطان شعبان - نجاحهم في اعادة اليلبناوية المطرودين -
سيطرة اليلبناوية على الجيش .

ترجع أصول تكوين دولة المماليك الثانية إلى أوائل أيام السلطان قلاوون حين عزم
حوالى سنة ٦٨١ هـ سنة ١٢٨١ م على تكوين فرقة جديدة من المماليك (١) ، ليكون

(١) حدد ابن إياس سنة ٦٨١ هـ تاريخاً ترك فيه قلاوون ركوبه بسبب ثورات الترك
وبداية لتكوين ممالك جدد : انظر بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، راجع كذلك ابن دقاق
« الجواهر الثمين » ج ٢ ورقة ١١٧ .

خلاصها له ويكون اعتماده عليها من دون الفرق المملوكية السابقة (١) ، وأطلق قلاون على أفراد هذه الفرقة اسم «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها (٢) ، وحرص السلطان على أن يكون أفراد هذه الفرقة من عناصر جديدة ، فتجنب جميع العناصر السابقة في الدولة المملوكية الأولى وهم الخوارزمية والتركمان والتتار والأتراك . ولذا غلب على الأجلاب الجديدة عنصر الجركس ، الذين جيء بهم من بلاد القسم الشمالي الغربي من القوقاز ، أي حوض نهر قوبان وقسمها من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود إلى أطراف بلاد الابخاز جنوباً ، ومن فروعهم السركس ، والأركس ، والكسا ، والآص (٣) .

وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه القبائل من الشجاعة والفروسية ، فإن بعثتها بين مناطقها الجبلية ووديانها سهل خضوعها للمغول الذين اشتدت غاراتهم على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثالث عشر (٤) . ولذا امتلأت معظم أسواق الممالك بالعنصر الجركسي . ويبدو أن اختيار السلطان قلاون لهذا العنصر ليكون نواة لفرقة الجديدة كان من أسبابه وفرتهم في الأسواق ، فضلاً عن رخص ثمنهم آنئذ بالنسبة للعناصر التركية (٥) . وظل السلطان قلاون يعمل على الإكثار من هذه الفرقة حتى بلغت عدتها في أواخر حكمه ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك ، (٦) ، غير أن لفظ الجركس لم يطلق على فرقة الممالك البرجية إلا بعد سنوات عديدة .

(١) من هذه الفرق المملوكية السابقة فرقة «الظاهرية» ممالك الظاهر بيبرس التي أيدت المسعود الخضر بن الظاهر بيبرس ضد السلطان قلاون ، وعاونته في استمرار بقائه بالكرك - راجع العيني عقد الجمان ج ٢ ورقة ٦٦٦

(٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ ، ٢٤١ ، السلوك ج ١ ص ٧٥٦ . ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ١٤ ص ٣٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة الجركس .

(٤) راجع Morgan : Etudes Arch. & Hist. au Caucase T. II P.P. 250-277.

(٥) تراوح ثمن الواحد من الجراكسة بين ١١٠ ، ١٢٠ ديناراً على حين كان ثمن التركي بين ١٣٠ ، ١٤٠ ديناراً - راجع Heyd : Hist. Du Commerce Du levant T II. p. 559.

(٦) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ : في حديث المقرئزي في هذا الشأن وقوله (وجملهم طوائف) لا يعود الضمير على السلطان خليل بل على السلطان قلاون بدليل أنه أكد هذا في ص ٢٤١ في نفس المرجع .

وجعل قلاون إقامة مماليكه الجدد في أبراج القلعة أى في مركز إقامة السلطان ودار الحكومة ليكونوا على قوله « كالأسوار والحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين » (١)

ولم تكن أبراج القلعة صغيرة ، بل اتسعت بحيث سمحت لسكنى جميع الفرق المملوكية الجديدة ولا سيما بعد أن أضاف إليها السلطان قلاون سنة ٦٨٣ هـ (سنة ١٢٨٣ م) برجاً عظيماً بجانب باب السر الكبير ، وبنى في مستواه عدة طباق ، وألحق بها عدة قاعات مرخمة (٢) . وأطلق قلاون على هذا البرج اسم البرج الكبير ، مضافاً إلى الأبراج الأخرى وهى البرج الأحمر ، وبرج الزاوية ، وبرج الحداد ، وبرج الرملية ، وبرج الإمام وغيرها (٣) ، على أنه جعل البرج الكبير لمماليكه الجدد ، وفصلهم بذلك عن الفرق المملوكية القديمة التى عرفت في مجموعها باسم الترك (٤) .

وعنى قلاون عناية شخصية بمماليكه الجدد ، ودأب على الجلوس بالرحبة بالقلعة ليشهد تمرين كل طبقة بين يديه بالرمح أو رمى النشاب (٥) ، وهذا فضلاً عن أنواع التربية الدينية المعروفة فى الأوساط المملوكية فى ذلك الوقت . ووضعت ميول قلاون نحو مماليكه الجدد (٦) مما جعل هناك مجالاً لنوع من الطائفية ، وبداية للتنافس العنصرى والحزبى بين المماليك .

وسار السلطان خليل بن قلاون على سنة أبيه فى الإكثار من المماليك الجركس حتى إنه رغب فى زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك ، فاشترى فى حكمه القصير (سنة ١٢٨٩ - سنة ١٢٩٣ م) حوالى ألفى مملوك من أسواق ثغر كفا بالقرم ، وأصبح ذلك الثغر مورداً هاماً للجراكسة (٧) .

غير أنه على حين حتمت النظم المعروفة الأيبارح الممالك القلعة ، سمح لهم

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٠٤ نقلاً عن ابن عبد الظاهر .

(٣) راجع القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤) راجع العريثى : الفارس المملوكى ص ٤٨ .

(٥) ذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان قلاون غير ملابس بمماليكه الجدد بزي أحسن منه

تسهل معه حركتهم - راجع ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

(٦) غالى المقرئى حين ذكر أن السلطان قلاون خص البرجية بالترقية إلى وظائف

السلحدارية والحمدقدارية والباشنكيريه والأوشاقية ، وذلك لقصر المدة التى يمكنهم أن يصلوا فيها

إلى هذه الوظائف . راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٧) المقدسى . نزهة الناظرين ص ٢٥٧ .

السلطان خليل أن يتزلوا منها في النهار بشرط ألا يبيتوا خارجها (١) . وأدى هذا إلى وقوفهم على الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس ، كما أدى إلى ازدياد تعلقهم بالسلطان خليل ، حتى صارت فرقته تعرف أحيانا بالأشرفية ، وبدأت بذلك المنافسة بين الترك والجرأكسة .

ومن هذه البداية يتضح أن الأمير بيدرا نائب السلطنة — وهو من الترك — استغل فساد سمعة السلطان خليل بين الناس ، وتمكن بالاتفاق مع الأمير لاجين السلاحدار (٢) وغيره من كبار الأمراء الترك على قتل السلطان وهو في إحدى سرحات الصيد (٣) ، أملاً في إعلان نفسه للسلطنة ، وثارَت المماليك البرجية بالقلعة لقتل خليل . ولم تهدأ ثائرتهم حتى استطاع الأمير طقجي البرجي قتل بيدرا وغيره من الأمراء الترك الذين ظهر أنهم اشتركوا في هذه الفتنة (٤) . ولذا كان من الطبيعي أن يجمع البرجية على اختيار أخي خليل وهو الناصر محمد بن قلاون للسلطنة في المحرم سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣ م) ، وسنه وقتذاك نحو تسع سنوات ، على أن يكون كتبغا المغولي نائب السلطنة وسنجر الشجاعى التركى في منصب الوزارة (٥) .

ثم لم يلبث كتبغا أن استغل صغر سن الناصر محمد بن قلاون وأخذ يستأثر بالسلطة دون سائر الأمراء . وغضب البرجية الذين كانوا السبب في إقامة السلطان الجديد ، وأخذوا في التدبير لملافاة هذا الأمر ونسبوا إلى كتبغا تهمة التستر على اشتراك لاجين في قتل السلطان خليل (٦) . وانتهاز الوزير سنجر الشجاعى فرصة كراهية البرجية لكتبغا ليغتصب السلطنة لنفسه ، فلجأ إلى بث الفتن بين الأمراء ، واتهم كتبغا بإهمال شأن الناصر محمد واستطاع في النهاية أن يحدث انقساماً في صفوف المماليك ، وصار العسكر فريقين ؛ فريق مع كتبغا ومعظمهم من الأمراء والمقدمين الترك ، والفريق الآخر مع الوزير الشجاعى وهم فرقة المماليك البرجية (٧) . غير أن ثمة ملاحظة هامة في هذا الصراع الوشيك الوقوع وهى : أن الانقسام لم يحدث على هذا النحو مصادفة ، بل كان

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٢١ ؛ Wiet:Biographies Du Manhl Safi p. 288.

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ١ ورقة ١٢٠ .

(٤) Zettersteen . تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) ابن تغرى بردى . المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٧٨ أ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٨ -

٣٣٩ .

(٧) الكتبى : هيون التواريخ ج ٥ ورقة ١٠٠ .

نتيجة استغلال كتبنا النزعة العنصرية ، إذ أخذ منذ ولايته نيابة السلطنة يعمل على استمالة العناصر التركية من بنى جنسه إلى جانبه بإسناد الوظائف إليهم (١) . أما الشجاعى فبرغم أنه تركى فإنه لم يكن فى وسعه سوى ضم البرجية إلى جانبه بإتفاق الأموال الطائلة عليهم ، حتى قيل إنه أنفق فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، كما زاد من حماسهم أنه أعلن فيهم أن كل من قتل أميراً من الترك من فريق كتبنا وجاء برأسه إليه « يأخذ بيته وبركه وإقطاعاته » (٢) . على أننا نلاحظ ناحية هامة أخرى وهى أن انضمام البرجية إلى جانب الشجاعى لم يكن رغبة فى معاونته على تحقيق أهدافه فى الوصول إلى السلطنة ، بل لأنهم فهموا أنهم اشتركوا فى نزاع شخصى بين الشجاعى وكتبنا من أجل تأييد مركز السلطان الجديد ، فضلاً عن رغبتهم من وراء هذا فى الانتقام من كتبنا أخذاً بثأر خليل أستاذهم المقتول .

وتوضح المقارنة بين الفريقين المتنازعين أن عدد البرجية بلغ آنذاك نحو خمسة آلاف وسبعمائة فى الوقت الذى ذكرت فيه المصادر المعاصرة أن عدد الترك نقص عن هذا العدد كثيراً (٣) ؛ ولذا شعر كتبنا بضعف جانبه فلجأ إلى إغراء الأمراء وأجناد الحلقة من الأتراك بالمال (٤) ، كما لجأ إلى الاستعانة بالسلطان الناصر محمد ليطالب الشجاعى للحضور إلى القصر السلطانى بالقلعة والاجتماع لتصفية الخلاف ، ولكن الشجاعى رفض أن يدعى للسلطان ، فخلق بذلك مجالاً للكشف عن نواياه فى السلطنة ، كما أنه جعل أتباعه من البرجية يظهرون كأنهم عصاة على السلطان ، ولهذا اجتمع الأمير كتبنا فى العاشر من صفر سنة ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣ م) ، بأعيان الترك وألبسهم آلات الحرب وأوقفهم فى سوق الخيل تحت القلعة ، على حين تحصن الشجاعى بالقلعة نفسها وأغلق بابها ودق الكؤوسات داعياً أتباعه من البرجية لحرب المماليك الترك .

وبدأ كتبنا حصار القلعة بقطع الماء عنها . (٥) وإزاء هذا نزل المماليك البرجية يوم الجمعة ١٣ من صفر ٦٩٣ هـ (سنة ١٢٩٣ م) من القلعة على حين غفلة وفاجأوا الأمير كتبنا وأتباعه من المماليك الترك وهزموهم ثم طاردوهم إلى خانقاه سرياقوس ومنها إلى بئر البيضاء — بين الحانكة وبلبيس — فاضطر كتبنا إلى الفرار إلى بلبيس (٦) .

-
- (١) راجع الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٨ .
 - (٢) ابن تبرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٣ .
 - (٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨٠ .
 - (٤) بيهرس الدوادار : التحفة الملوكية ورقة ٦٣ .
 - (٥) ابن تبرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٣ .
 - (٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨٠ - ١٨١ .

وكاد انتصار البرجية على الترك يحول مجرى الحوادث ويعجل بالقضاء على سلطنة بيت قلاون لولا أن نهضت العناصر التركية بزعامة بكتاش أمير سلاح ، وببىرى أمير مائة ، وبكتوت العلأى أمير مائة ، وأبلىك الموصلى أمير أربعين واستعانت بالعامه للمواجهه البرجية وتمكن الترك ن هزيمة البرجية فى واقعة حاسمة عند البئر البىضاء فى نفس الشهر واضطر البرجية بعدها إلى الهروب للاحتباء بالقلعة (١) .

ثم أدرك الترك أن الوزير الشجاعى خدع البرجية حين أخبرهم أنه أراد بحركته الدفاع عن بيت قلاون من سطوة كتبغا ، وأن البرجية لو عرفوا الحقيقة لأظهروا إخلاصهم وولاءهم للسلطان الذى لم يمحض على اختيارهم له أكثر من شهر . ولذا عمدوا إلى حيلة يستجلبون بها خواطر البرجية وذلك بكشف نوايا الشجاعى لفرقة البرجية فجعلوا السلطان الناصر محمد يصعد على البرج الأحمر ويدعو البرجية إلى طاعته . ونجحت حيلتهم إذ ما كاد نظر البرجية يقع على السلطان الناصر محمد حتى فهموا موقف الوزير الشجاعى على حقيقته ، وما لبثوا أن استجابوا لنداء السلطان وأسرع البرجية وجاءوا إلى الناصر محمد وقبلوا الأرض بين يديه واعتلروا عما قاموا به نحوه بقولهم «نحن ممالىك السلطان ولم نخلع يدا عن الطاعة و ليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة واتفاق الكلمة وإزالة أسباب الفساد عن المملكة» . (٢) .

وهكذا فشل الشجاعى بعد أن بدأ أصحابه من البرجية يتسللون للانضمام إلى كتبغا مما قوى جانبه وأعانه على إحكام الحصار على القلعة حتى آثر الشجاعى طلب الأمان الذى لم يقبله الأمراء . ولم يلبث الشجاعى أن شعر بضعف مركزه فسلم نفسه لكتبغا ، الذى قطع رأسه ، وطاف المشاعلية بها فى الشوارع والبيوت ، ودقت البشائر معلنة انتهاء الفتنة (٣) .

والواقع أن هذه الحادثة دلت على بداية تحول فى سياسة فرقة البرجية حتى أصبحت فرقة تعمل مع الأمير الذى يغدق عليها مالا أكثر من غيره . ووضحت هذه البداية فى اندفاع البرجية وراء الوزير الشجاعى وخروجهم على نائب السلطنة على هذه الصورة الحاطفة بالحرية ؛ ومنذئذ بدأ الأمراء الترك يعملون ألف حساب لهذه الفرقة الجديدة التى وقفت عقبة أمام أطماعهم فى السلطنة .

ولما كان كتبغا يرغب فى أن يكون له كامل النفوذ فى الدولة بعد أن تخلص من

(١) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر قسم ٢ ورقة ١٨٠ .

(٣) الصفدى : أعيان العصر ج ٦ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

الشجاعى ، فإنه وجد أن بقاء البرجية سوف لا يحقق له هذه الرغبة ، ولذا تظاهر بأنه يخشى نشاط البرجية السياسى ضد سلطنة بيت قلاون ، وعمد إلى إخراج طوائفهم المتهمه بالثورة من الأبراج السلطانية بالقلعة لتقيم فى مناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق؛ وطائفة ثانية فى مناظر الكباش بجوار الجامع الطولونى (١) ، وأخرى فى دار الوزارة برحبة باب العيد ، كما سجن عدداً كبيراً من البرجية الذين نخشى خطرهم . غير أنه أبقى على طائفة منهم تبلغ نحو أربعة آلاف وسبعمائة بالقلعة، وضيق عليهم الخناق وأمر بعدم مغادرتهم الأبراج خشية انضمامهم إلى إخوانهم الذين طردوا من القلعة (٢) .

وأصبح من الواضح إذن أن الترك لم يعمدوا إلى تشريد البرجية رغبة فى حماية عرش الناصر محمد ، ولكن رغبة فى القضاء على معارض خطير بدأ فى الظهور على مسرح السياسة . ومن هنا بدأ اهتمام البرجية يتحول من الدفاع عن السلطان إلى الانتقام من المماليك الترك .

ثم إن هذا الإجراء من جانب كتبغا لم يكن له أثر كبير فى إضعاف نفوذ البرجية بل على العكس أدى إلى تكرار ثوراتهم ، ذلك أن المماليك البرجية الذين طردوا من القلعة لم يرضوا بهذا التشريد ، وخاصة بعد أن أعلنوا للناصر محمد أنهم لم ينضموا إلى جانب الشجاعى ضده بل رغبة فى الانتقام من كتبغا . ووجد هؤلاء البرجية أن إخلاصهم للناصر محمد لم يجدهم شيئاً بعد أن استحوذ الترك عليه وجعلوه ألعوبة فى أيديهم، وهو لم يجاوز وقتذاك العاشرة من عمره . ولما لم تعد هناك قيمة لتأييدهم للسلطان الناصر محمد أصبحت سياستهم تنحصر أولاً وقبل كل شىء فى المحافظة على كياناتهم إزاء الاضطهاد التركى .

وفى ١١ من المحرم سنة ٦٩٤هـ (سنة ١٢٩٤م) سنحت الفرصة للبرجية المطرودين لمحاولة العودة إلى مكانهم القديم حين خرجت فرقتهن المقيمة بالكباش واتجه أفرادها إلى الاصطبلات التى تحت القلعة ، واستولوا على ما بها من الخيول ثم دارت الفرقة على خشداشيتهـا بمناظر الميدان الصالحى ودار الوزارة ، وبعدها اتجهوا جميعاً إلى باب سعادة فأحرقوه . ثم قصدوا إلى سوق السلاح بالقاهرة؛ ومضوا بما أخذوه من السلاح إلى خزانة البنود

(١) هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو سنة ٦٤٠هـ ثم جدها الناصر محمد سنة ٧٢٣هـ وسكنها فيما بعد الأمير صرغتمش والأمير يلغنا العمرى الخاصكى من بعده زمن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون . وأصبح هؤلاء الأمراء يناوئون سلاطين دولة المماليك الأولى منها - راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) قيام دولة المماليك - ١٧

وأخرجوا من فيها من المماليك ثم توجهوا إلى القلعة لحصارها . ولكن محاولتهم لم تفاح
إذ تمكنت حامية القلعة من القبض عليهم ، حيث ضربت رقاب بعضهم ، وقطعت
أيدي جماعة أخرى وأرجلهم وصلبت جماعة أخرى منهم على باب زويلة (١) ،
واستصدر كتباً أمراً من السلطان الناصر محمد بتوزيع باقي الثائرين وعددهم نحو ثلاثمائة
مملوك على الأمراء إمعاناً في الخط من شأنهم ، إذ كانوا مماليك سلطانية ثم صاروا مماليك
أمراء (٢) .

على أن هذه الثورة التي قام بها المماليك البرجية أخافت كتباً نائب السلطنة من
انتقام البرجية الموجودين بالقلعة ، فسارع بخلع السلطان الناصر محمد ونفاه إلى الكرك
وأقام نفسه سلطاناً في ٢١ من المحرم من السنة نفسها (٣) ، واتبع هذا ببذل جهوده
لكسر شوكة البرجية الذين ما زالوا يشكلون بأعدادهم الكبيرة خطراً داهماً على الدولة ،
كما عمل على تقوية جانب المماليك الترك . وتحقيقاً لهذه السياسة شنت كتباً عدداً
كبيراً من البرجية المقيمين بالقلعة ، وأحل مكانهم طائفة من بني جنسه وهي طائفة
المغول الأويراتية الذين فروا من بلادهم سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) بعد ولاية غازان محمود
الحكم فيها واستدعى السلطان كتباً أكابرهم ليقيموا بقلعة الجبل وأنعم على مقدمهم
طرغاي بإمرة طبلخاناه وأنزل الباقيين بالحسينية . وحرّم كتباً بهذا الإجراء عدداً كبيراً
من البرجية من إقطاعاتهم وتأثر عدد آخر منهم حين قلل من رواتبهم التي أعطاهم لؤلؤ
الأويراتية (٤) .

غير أن كل هذه الجهود من جانب السلطان لم تؤد كذلك إلى ضعف
شأن البرجية سواء الذين في داخل القلعة أو خارجها . بل أدت فعلاً إلى خلق العنصرية
 الواضحة في صفوف المماليك . وبدأ المماليك البرجية ينتهزون الفرص للانتقام من الترك
 في شخص السلطان كتباً . ولكن الحوادث لم تمكنهم من تحقيق ذلك إذ استطاع الأمير
 لاجين (٥) إثارة عدد كبير من الأمراء الترك على كتباً بسبب عزله عز الدين أيلك
 الحموي نائب الشام ، وعمد لاجين بذلك إلى التمهيد لنفسه للوصول إلى السلطنة . ثم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ - ٨٠٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٨ .

(٣) بيهرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ١٨٧ أ ، ١٨٨ أ .

، ابن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤١٨ - ٤٢١ .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٥) كان لاجين رومياً ومع ذلك كان أبرز شخصية من باقي الأمراء الترك راجع ابن بهادر ،

فتوح النصر قسم ٢٠ ورقة ١٩١ .

حاول لاجين أواخر سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) قتل كتبغا وهو عائد من الشام فلم يستطع ، ولكنه استطاع الوصول إلى منصب السلطنة في المحرم سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وانضم إليه جميع المماليك الترك وذلك بعد أن فر كتبغا إلى صرخند (١) .

وباعتلاء لاجين عرش السلطنة سنة ٦٩٦ هـ لم يتغير موقف البرجية من الترك بل تركز انتقامهم منهم في شخص السلطان لاجين بعد أن اختفت شخصية كتبغا وعادوا ينتظرون الفرصة لتحقيق هدفهم . وبدأت الفرصة سائحة في صفر سنة ٦٩٨ هـ حين انقسم المماليك الترك على السلطان لاجين بسبب مخالفته لرأيهم في تعيين الأمير منكوتمر أحد مماليكه المكروهين في نيابة السلطنة (٢) . وأصبح جانب السلطان لاجين ضعيفاً حين أخذ الأمراء الترك يدبرون المؤامرات ضده وضد الأمير منكوتمر . وخشى الأمير منكوتمر أن ينتهز البرجية الفرصة ويقتلون السلطان لاجين . ولذا أخذ يعمل على إبعاد الأمير سيف الدين كرجي مقدم المماليك البرجية ، فأوعز إلى السلطان لاجين أن يوليه نيابة بعض القلاع التي فتحها عسكر السلطان ببلاد الأرمن (٣) . غير أن الأمير كرجي تنبه إلى المؤامرة وطلب من السلطان لاجين أن يعفيه فأعفاه . وأسرع كرجي بعد عذته ، واستطاع البرجية تنفيذ خطتهم حين جلس السلطان في القصر إلى وقت المغرب من ليلة ١٠ من ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ فاتفق كرجي مع صاحب نوبة تلك الليلة وهو نوغاي الكرمانى على أن يدخل المماليك البرجية وأن يمكنهم من الهجوم على السلطان وقتله . والحلاصة أن كرجي بمعاونة نوغاي الكرمانى تمكن من قتل السلطان لاجين حين قام لصلاة العشاء . وتظهر أهمية هذه الحادثة فيما ذكرته المصادر عن نفوذ البرجية وقتل ذلك إذ أن كرجي جلس في القلعة لحفظها ومعه نحو ألف فارس من المماليك البرجية (٤) .

وربما يتساءل المرء : لماذا لم يقيم المماليك البرجية كرجي سلطاناً وقتلوا ؟ والإجابة تأتي من سياق الحوادث التي تلت مقتل السلطان لاجين ، وذلك أن المماليك البرجية لم تكن صفوفهم رتب بعد ليكون في استطاعتهم إجماع الآراء على واحد منهم . وينهض دليلاً على هذا أنه كان بين صفوف البرجية أمير أقوى من كرجي ، وهو بيبرس الجاشنكير بن عبد الله المنصورى الجركسى الجنس ، وله أنصار كثيرون ، لامن البرجية فحسب ، بل من الترك كذلك ، فضلاً عن أنه تأمر قبل كرجي وذلك منذ أيام أستاذ

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ .

(٣) ابن تيمى بردى : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٥١ ب .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

المنصور قلاوون . وزاد نفوذه حين أصبح من كبار الأمراء في عهد السلطان خليل . ولم يقلل من شأن بيبرس الجاشنكير سوى السلطان كتبغا الذي عزله عن الاستادارية جريا على سياسته في تشتيت البرجية . ووقف بيبرس الجاشنكير في جانب الأمراء وأجناد الحلقة والمقدمين وأجمعوا على قتل كرجي لأنه عارضهم في إعادة الناصر محمد وطالب بسلطنة واحد من البرجية وهو طقجي وأن تكون النيابة له (١) . ثم تمكن الأمراء من قتل طقجي كذلك (٢) ، وتخلصوا من صراع طائفي وشيك الوقوع بأن اتفقوا على الاحتفاظ بالسلطنة في بيت قلاوون ، فأرسلوا إلى الكرك في جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) لإحضار الناصر محمد الذي اعتبره الناس السلطان الشرعي للبلاد ، ثم سلطوه وأصبح الأمير سلار التركي نائب السلطنة (٣) .

ويبدو واضحاً من كل هذه الحوادث أن البرجية أصبحت منذ سنة ٦٩٨ هـ — (١٢٩٨ م) فرقة لا يستهان بها . وفضلاً عن كثرتهم العددية صار أغلبهم في سلطنة الناصر محمد الثانية من كبار الأمراء (٤) بل أصبح منهم أمراء ألوف وعين البعض الآخر نواباً في سورية ومصر . ومن هؤلاء قراسنقر الجركسي المنصوري الذي عاد إلى نيابة الصببية ثم ناب في حلب بعد كتبغا (٥) .

غير أن ازدياد نفوذ البرجية في هذه السنة كان من عوامل ثورة العناصر المملوكية الطامعة في الحكم ، ومن هذه العناصر بقايا فرقة المغول الأويراتية ، إذ نصب هؤلاء المغول كميناً لمباغثة البرجية قبيل لقاء الجيش المملوكي بجيش غازان سنة ٧٠٢ هـ ، ولكن البرجية تنبهوا لهذه المؤامرة وحاولوا الانتقام من الأويراتية ، ولما أوشك الانقسام أن يدب في جيش الممالك أسرع سلار نائب السلطنة وقبض على الأويراتية وشتتهم (٦) . ثم أصبح البرجية عنصراً هاماً في الجيش المملوكي بعد أن أسهموا بسهم وافر في صد جيوش غازان التي هاجمت سوريا بين سنتي ٦٩٨ هـ ، ٧٠٢ هـ . وأوضح ابن تغري بردي صورة من هذه الجهود في وصفه لواقعة شقحب (إحدى قرى دمشق) . سنة

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٨٦٦ .

(٢) Zettersteen تاريخ سلاطين الممالك ص ٥٢ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٤ .

(٤) عيون التواريخ ج ٥ قسم ١ ورقة ١٣٢ .

(٥) المسقلاني : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٦) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٨٨٤ — ذكر المقریزی في المقنن كذلك ج ٣ ورقة ٨٦

أن الأويراتية أرادوا بهذه الفتنة قتل بيبرس وسلار لإمكان إعادة كتبغا إلى السلطنة وهنا تظهر ناحية طائفية لعلها كانت أهم أسباب ضعف المنصور التركي أمام المنصور الجركسي .

٧٠٢ هـ وهى الواقعة التى قادهم فيها بيبرس الجاشنكير وذلك فى قوله : « وسلموا نفوسهم إلى الموت ، فلما رأى باقى الأمراء منهم ذلك ألقوا بأنفسهم إلى الموت واقتحموا القتال » (١) على أن هذه الانتصارات التى أحرزها البرجية فى ميادين القتال غيرت من سياستهم إزاء بيت قلاون إذ انقلبوا من متعصبين له إلى طامعين فى السلطنة كلها . وتفصيل هذا أن الأمير بيبرس الجاشنكير متولى أمور الممالك البرجية بعد كرجى تولى منصب استاذاية الناصر محمد ، فعند إلى رفع شأن الممالك البرجية بعد واقعة شقحب . وبلغ نفوذ البرجية درجة جعلت الناس يترددون إليهم فى قضاء حاجاتهم حتى إن المقرئى أوضح لنا مدى نفوذ البرجية فى سلطنة الناصر محمد الثانية فى قوله : « وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة » (٢) وترددت الناس إليهم فى الأشغال وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير ، وأمر منهم عدداً وصار فى قبالة الأمير سلار ومعه الصالحية والمنصورية (الترك) إلا أن البرجية أكثر وأقوى وشرهوا جميعاً إلى أخذ الإقطاعات » (٣) .

وهكذا اشتدت المنافسة بين البرجية وبين الترك وظهر هذا التنافس واضحاً حين عمد كل من الفريقين إلى زيادة نصيبه من الإقطاعات ومن مناصب الإمارة المملوكية رغبة فى أن ترجح كفة فريقه على الفريق الآخر ، وبدا يسهل عليهم خلع السلطان . وضاق صدر الناصر محمد — الذى ناهز العشرين من عمره — من هذا الصراع بين طائفتى الممالك ، هذا الصراع الذى أوشك أن يضعه بين شقى الرحى ، فهو لم يستطع التصرف فى شئون الدولة . كما أنه لم يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكول لقلة المرتب له فى وقت بلغت إقطاعات الأمراء شيئاً كثيراً حتى يقال إن إقطاعات سلار فقط بلغت نحو أربعين طبلخانة وبلغ دخله فى كل يوم مائة ألف درهم (٤) .

وفى رجب سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٧ م) حاول الناصر محمد أن يتخلص من زعيمى الطائفتين بالاتفاق سرّاً مع الأمير بكتمر الجوكندار على قتلها ، غير أن بكتمر نفسه كشف المؤامرة للأميرين ؛ بل حلف لهما على أن يكون معهما . فتحالف بيبرس وسلار على العمل بدورهما ضد السلطان . ولما لم يكن مع السلطان سوى عدد قليل من الممالك

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الحمايات جمع حماية وهى مكس يفرسه الأمير أو السلطان أحياناً على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرزاق ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر . راجع ، الأسدى : التيسير والاعتبار والاختيار ورقة ٥٢ - ٥٣ ، Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

(٤) الشوكافى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

السلطانية الترك الذين أعدهم لحمايته ، فإنه لم ينقذه من هذا الموقف سوى العامة الذين أسرعوا لتأييده ، فضلاً عن أن الناصر محمد عمد إلى الحيلة وتظاهر بجهله بكل ما يدور وبعث يسأل الثائرين عن غرضهم ويعان استعداداته التام للتنازل عن السلطنة . وكأنما شعر الأميران بخرج موقفهما مع المماليك السلطانية والعامة ، فأرسلوا فرقة إلى العامة لتفريقهم ، ولكن هذه الفرقة فشلت لأن العامة ثبتوا في أماكنهم وظلوا يصرخون مؤيدين الناصر محمد بقولهم : « يا ناصر يا منصور ! الله يخون من يخون ابن قلاون (١) » . ولما لم تفلح القوة في قمعهم اضطر الأميران إلى التوجه إلى الناصر محمد معلنين طاعتهما سائلين أن يركب في أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن قلوب العامة ، فأجابهما إلى ذلك . وهكذا أخمدت الثورة وفشلت محاولة السلطان للتخلص من الأميرين اللذين أذعنا له وقبل يديه فأفيضت عليهما الخلع (٢) .

ولكن أطماع المماليك البرجية لم تقف عند حد ، ودفعهم تعصبهم لناصرهم إلى العودة في شعبان سنة ٧٠٨ هـ إلى منافسة المماليك الترك في الوصول إلى أعلى المناصب وفي اقتناء أحسن الإقطاعات . ولم يكن في وسع السلطان الناصر محمد أن يقاوم لصغر سنه ، فآثر السلامة على عادته ، ولكنه بدا أكثر دهاءاً من كل من زعمى الفرقتين إذ أخبرهما بعزمه على الخروج للحج مع أولاده وبيته ، وسرعان ما وافقاه على هذا الأمر ليتمكن كل منهما من تحقيق مأربه (٣) . ورحب البرجية بهذا السفر بل شرعوا في تجهيزه . وكتب إلى دمشق والكرك برمي الإقامات وأحضر الأمراء تقادهم من الخيل والجمال حسب عاداتهم وسافر السلطان للحج في العاشر من رمضان سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) .

وبلغ من استهتار الأميرين بيبرس وسلار بالناصر محمد أنهما حين اشتركا في وداعه لم يترجلا له ؛ ولهذا لم يكد الناصر محمد يصل إلى الكرك حتى كشف النقاب عن موقف الأميرين فكاتبهما يدعوهما إلى طاعته ، وأدى هذا الكتاب إلى عودة اتفاق بيبرس وسلار لمواجهة الموقف ، وردا على الناصر محمد بخطاب جاء فيه « ما علمنا ما عولت عليه ، وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهلها وتشجيعك نائبها . . . فخل عنك شغل الصبي وقم واحضر إلينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفع الندم . . . (٤) » .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٣

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٠

غير أن الناصر محمد استغل فرصة كراهية الناس للأميرين وأظهرهما بمظهر معتصبي العرش من سلطان زهد في السلطنة ، فأرسل مع البريد جميع شارات السلطنة وأعان تنازله عنها في كتاب حملته البريد إلى القاهرة في شوال سنة ٧٠٨ هـ .

وهكذا جعل الناصر محمد السلطنة من جديد ميداناً للتنافس بين البرجية والترك ، غير أنه لما كانت فرقة المماليك البرجية وقتذاك أقوى نفوذاً وأكثر عدداً من المماليك الترك فإن تنازل الناصر محمد حين تلى على الأمراء لم يتقدم سلار لترشيح نفسه للسلطنة ، لقلة عدد أنصاره من الترك (١) ، ولإجماع الأمراء البرجية على اختيار الأمير بيبرس الجاشنكير سلطاناً (٢) ولم يتأخر الأمراء الترك عن مبايعة بيبرس الجاشنكير لضعف نفوذهم ولأنهم خشوا استعانة أحد الأميرين المتنازعين بالعرب ، فأثبتت القضية كتاب الناصر محمد في ١٢ من شوال سنة ٧٠٨ هـ (سنة ١٣٠٧ م) وسلطنوا بيبرس الجاشنكير (٣) .

وبرغم أن هذه هي أول مرة نجح فيها أحد الجراكسة في اعتلاء السلطنة المملوكية ، وبرغم أنهم سيطروا على عدد كبير من الوظائف في مصر ، فإن ناحية ضعف بدت في جانبهم ولعلها هي التي جعلت بيبرس الجاشنكير يتردد كثيراً قبل الموافقة على قبول السلطنة . أما سبب هذا الضعف فهو أن أكثر نواب سوريا كانوا من الترك (٤) ، الذين لاشك في إخلاصهم للناصر محمد في مثل هذه الظروف التي يغتصب فيها العرش واحد من الجراكسة . ولم يكن هناك في سوريا من أعلن تأييده لبيبرس الجاشنكير سوى آقوش الأفرم الجركسي ، نائب دمشق ، لما بينه وبين الجاشنكير من صلة القرابة (٥) ، فأسرع الأفرم لاستقبال حاملي أنباء مبايعة بيبرس الجاشنكير خارج المدينة بمظاهر الفرح ، وأمر فزينت دمشق زينة هائلة .

وفي القاهرة بدأ البرجية محاولتهم لتأييد سلطانهم بأن نصحوا بيبرس بالقبض على سلار خشية أن يثير الترك عليهم ، غير أن بيبرس لم يكن مستعداً للقيام بهذا العمل قبل أن يتخلص من الناصر محمد نفسه ، كما أنه خشي اضطراب الأمور إذا انصرف إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٧ ، ٢٥ .

(٢) ابن تدرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢٧ - ذكر العقلافي أن بيبرس الجاشنكير اشترك في الانتقام من قتلة السلطان خليل ، ثم إنه تطلع للسلطنة منذ فتنة الشجاعى وأنه قبض عليه بسببها (راجع الدور الكامنة ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٣) .

(٣) ابن دقاق : البلوهر الشمين ج ٢ ص ١٣٣ .

(٤) راجع العقلافي : الدور الكامنة ج ٤ ص ١٤٥ .

(٥) ابن تفرى بردى : المنهل الصافي ورقة ١١٣٧ .

النضال مع الترك ؛ ولهذا حرص وقتذاك على إظهار وودته لسلاح ، وعمد إلى مشاورته وغيره من كبار الأمراء في أمر الناصر محمد حتى اتفق الجميع على إرسال جيش لقتاله ومن ناحية أخرى أراد بيبرس أن يكسب حكمه صفة شرعية فحصل من الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي على عهد جديد (١) . وعلى الرغم من أن هذا العهد أعلن في المساجد ، ورغم أن بيبرس الجاشنكير حرص على كسب العامة منذ سنة ٧٠٠ هـ بإلزام النصارى بلبس العمام الزرق ، واليهود بلبس العمام الصفرة وعدم استخدامهم في الدواوين ، وفضلاً عن إلغاء عيد الشهيد سنة ٧٠٢ هـ ، على الرغم من هذا كله فإن بيبرس لم يكسب العامة الذين تعاملت صيحاتهم مرددين « مانريد المظفر ! » بل وقعت في القاهرة اضطرابات عنيفة ، حوكم بسببها عدد كبير من العامة (٢) .

وكأنما شعر باقي نواب سوريا وهم من الترك بالخطر يتهددهم نتيجة اعتلاء واحد من البرجية الجراكسة السلطنة المملوكية وسعيه لتعيين خشداً أشيته نواباً في سوريا (٣) فرفض بعضهم أن يخلف للسلطان الجديد ، ومن هؤلاء الأمير بيبرس العلاني ، والأمير بها در الحاج الذي ينسب إليه أنه قال « إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا ، أهلكونا وراحت أرواحنا معهم فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا » (٤) .

وإذ لم يوفق الجراكسة في سوريا بعد أن تكتل ضدهم نوابها وأمرؤها الترك ، وبعد أن فشلت دعايات أقوش الأفرم في تثبيت السلطان بيبرس الجاشنكير ، فإنه لم يصادفهم التوفيق في مصر كذلك نقص ماء النيل ذلك العام ، فزاد كره الناس للسلطان الجديد ، وزاد الطين بلة أن انتشر الفساد والسلب والنهب حين أمر بيبرس الجاشنكير بماليكه بمهاجمة البيوت للبحث عن الخمور وعقاب أصحابها (٥) .

وإزاء كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بهذه المحاولة لسلطنة واحد من البرجية رأى الناصر محمد الفرصة سانحة لاسترجاع ملكه ، وذلك حين أرسل بيبرس الجاشنكير إلى الناصر في رجب سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨ م) يطلب منه المال الذي أخذه معه إلى الكرك في صورة تحمل التهديد ، مما حدا بالناصر محمد إلى ضرب رسول بيبرس وإعادته على أقبح وجه . ثم أخذ الناصر يعد العدة للتقدم إلى دمشق . وحوالي ذلك الوقت كاتب سلاح الناصر محمد باستعداده لمؤازرته ، بل إن سلاح وضع للناصر محمد الخطة بأن يتوجه إلى

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٦٨ أ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ أ .

(٥) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ .

دمشق ليحصل على تأييد أمراء سوريا الترك حتى إذا تم له الأمر وعاد إلى مصر يحتفظ سلار له بالسلطنة في وقت ضعف فيه مركز بيبرس (١) .

ونجحت الخطوة الأولى من خطة الترك إذ لم يكذ الناصر محمد يزحف نحو دمشق حتى فرمها الأفرم ، وهو أهم شخصية جركسية اعتمد عليها بيبرس في سورية . وسرعان ما أعلن الناس في سورية تمسكهم بأحقية بيت قلاون في السلطنة ، واستقبل أهل دمشق الناصر محمد بالشجوع والمباخر واللعب بالسيوف (٢) .

ثم اجتمعت عدة عوامل ساعدت على نجاح باقى الخطة لإزالة سلطنة بيبرس الجركسى . وفى مقدمة هذه العوامل أنه لم تعد هناك قيمة لكتابات بيبرس إلى نواب سورية لتأييده والوقوف مع آقوش الأفرم نائب دمشق ؛ لأن آقوش لم يتمكن الحوادث من مقاومة الناصر محمد والمماليك الترك طويلاً ، وثانيها ضعف النفوذ الجركسى في سوريا تماماً بعودة الأفرم بعد اختفائه ، وإذعانه بالطاعة للناصر محمد الذى وعده بتأمينه (٣) ، ومن هذه العوامل كذلك مكاتبة أمراء سوريا الترك إلى أصحابهم من أمراء مصر وتشجيعهم على أن يكونوا معهم لإعادة سلطنة الناصر محمد (٤) . ونتيجة هذه الكتابات تسلل المماليك الترك من مصر إلى سورية لينضموا إلى إخوانهم الترك الذين تجمعوا لمعاونة الناصر محمد . ولم يبق بالقاهرة سوى البرجية الذين اجتمعوا وقرروا أن سبب هذه النكبة هي سلار وأنه يلزم القبض عليه . وشعر بيبرس بعدم جدوى القبض على سلار بعد فرار أكثر المماليك إلى سورية . ولهذا اتفق مع البرجية على الزحف إلى سورية لقتال الناصر محمد (٥) . غير أن بيبرس حين علم بانضمام برلغى آقوش نائب الكرك إلى الناصر محمد أسقط في يده ، وأيقن زوال ملكه ، إذ أن برلغى هذا زوج ابنة الجاشنكير وأحد أعيان دولته ، ومن أنعم عليهم بنيف وأربعين ألف ديناراً مصرية ، وفشلت كذلك محاولات بيبرس في القضاء على المقاومة الشعبية لأن العامة لم يعترفوا بسلطنة الجراكسة ؛ وانتهى أمر بيبرس باغتصاب جميع أموال الخزائن السلطانية ونزوله عن السلطنة بإشارة الأمير بيبرس الداودار المؤرخ ، والأمير بهادر آص ، فكتب بذلك إلى الناصر محمد (٦) .

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ١٣٥ .

(٣) الكتبى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٢٧٥ .

(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ قسم ٢ ورقة ١٥٤ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦١ .

(٦) بيبرس الداودار : التحفة الملوكة ورقة ١٠٠ .

ولم تكن حماسة الناس في مصر لبيت قلاوون أقل من حماسة أهل سورية ؛ برغم قلة الترك آنذاك في مصر . وسرعان ما اتجه العامة نحو باب الإسطبل من القلعة ، وحين خرج بيبرس من القلعة رماه بعضهم بالحجارة ، فحاول مماليكه وضع السيف فيهم ، ولكنه أراد اتقاء غضبتهم بأن رمى إليهم بالمال ليشغلوا بجمعه ، غير أن هذا لم يمنع العامة من العدو خلفه وسبه وهو في طريقة إلى الحرب . وبذل البرجية جهوداً كبيرة لإنقاذه حتى شهروا سيوفهم في وجوه العامة ، ومكنوا بيبرس من الاختفاء ، وبقي سلالاً بمفرده يدبر أمر الدولة حتى حضر الناصر محمد ، وخطب له على منابر القاهرة يوم الجمعة ١٩ من رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٨ م) (١) .

ونتج عن هذه المحاولة من جانب الجراكسة لاغتصاب السلطنة تغير واضح في سياسة الناصر محمد في سلطنته الثالثة إزاء فرقة البرجية إذ زادت كراهيته للجراكسة وعمل على الانتقام منهم ، فخالف اتجاه أبيه وأخيه الأشرف خليل في شراء المماليك الجراكسة حين أكثر من شراء المماليك الترك (٢) . وأوضح المقرئى انصراف الناصر محمد إلى شراء المماليك الترك وتشجيع التجار على جلبهم في قوله : « وبذل الرغائب في حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة ، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد . (٣) . وبلغ ما اشتراه الناصر محمد من المماليك الترك اثني عشر ألف مملوك . ولم يكتشف الناصر محمد باقتناء هذا العدد الضخم من الترك ليتمكن من مواجهة أعدائه الجراكسة ، بل دفعه خوفه من البرجية إلى ترقية مماليكه الجدد من الترك بمنتهى السرعة . ولم يراع عادة أبيه وغيره من السلاطين

(١) ويتضح لنا كراهية العامة لحكم بيبرس الجاشنكير من الآيات التي نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشار مساحي ومنها :

ولى المظفر لما فاته الظفر	وناصر الحق وافي وهو متصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا	كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه	أثواب عارية في طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أم	لم يحمدا أمره فيها ولا شكروا

راجع السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦

(٢) راجع Poliak : Le Caractère Colonial De l'Etat Mamluk. p. 231

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ ذكر المقرئى أنه جلبهم من بلاد

أوزبك وتوريز وبلاد الروم وبغداد وغالب مماليك هذه البلاد هم من الترك .

السابقين في تنقل المملوك في أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن ، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير والترقية السريعة تحقيقاً لهدفه في أسرع وقت (١) .

ولمجاناً في إضعاف قوة الجراكسة عهد الناصر محمد إلى تعقب أنصار بيبرس الجاشنكير من الجراكسة ، فوزع عدداً كبيراً منهم على أمرائه الترك وبالع في قتل الكثيرين منهم حتى فر من وجهه قراسنقر وآقوش الأفرم والزردكاش ، وهم من كبار الأمراء الجراكسة . ووصل أولئك الثلاثة إلى خربندا إيلخان التتار مستجيرين ، فرحب بهم وأقطع قراسنقر مرانة ، والأفرم همدان ، والزردكاش نهاوند . ومع هذا تعقبهم الناصر محمد « بالفداوية » كما رصد لهم عيوناً تطالعه بأخبارهم (٢) .

بيد أن هذه السياسة لم تؤد إلى شيء سوى دفع بعض زعماء الجراكسة إلى المؤامرة سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٩ م) . ففي تلك السنة قام الأمير بتخاص الجركسي بتحريض ممالك بيبرس الجاشنكير على قتل أمرائهم الترك (٣) . ولم يكتف السلطان الناصر محمد بالقضاء على هذه المؤامرة بل تابع موجات اضطهاد الجراكسة ، فأخذ في عرض الممالك البرجية ووفر جوامك عدداً منهم وقطع رواتبهم ، وأعطى الإقطاعات والرواتب التي توفرت نتيجة حرمان هؤلاء الممالك البرجية منها — وخاصة في أراضي الحيزة — إلى ممالكه الترك (٤) . ثم إنه في سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) أعاد الناصر محمد عرض الممالك البرجية ، وأخرج مائة وثمانين من كبارهم إلى العمل في سورية ، أما من خشي خطرهم فإنه أصدر أمره بقتلهم غرقاً في النيل (٥) .

ومنذ انتهاء عهد الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) تصف المصادر المعاصرة فرقه الممالك البرجية وصفاً عنصرياً فتطلق عليها كلمة الجراكسة . ولعل ذلك يرجع إلى تكتل الجراكسة الذين تكونت منهم هذه الفرقة ووقوفهم ضد الترك عدة مرات وضحت فيها العنصرية والعصبية .

غير أننا لم نجد أثراً لمحاولات جركسية ضد الترك في عهود السلاطين كجك (٥٧٤٢) وأحمد (٧٤٢-٧٤٣ هـ) ، وإسماعيل (٧٤٣-٧٤٦) أبناء الناصر محمد . ولعل

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة ، المسقلاقي : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٥٧ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٥٥٤ - ٥٥٦ (تقع بلدة المراغة بإقليم أذربيجان ،

أما همدان فشمال نهاوند) . انظر المقریزی جني الأزهار من الروض المطار ورقة ٥٣ أ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٢ قسم ١ ورقة ٢٤٨ .

(٤) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ .

ذلك بسبب زيادة عدد المماليك الترك في سلطنة الناصر محمد الثالثة زيادة ملحوظة وازدياد النفوذ التركي ، وما تبع هذا من الاضطهادات المستمرة التي شنها الناصر محمد على الجراكسة . أما منذ سنة ٧٤٦ هـ حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى فإن الحوادث المختلفة أثبتت أن الجراكسة مهدوا لإعادة المحاولة بزيادة عددهم في القلعة وخارجها؛ مما كان سبباً للمخاوف التي أحس بها المماليك الترك سادة الدولة المملوكية الأولى؛ والذين أعلنوا للناس أنه عندما تنمو قوة الجراكسة فلأنهم « سيهلكون العباد والبلاد » (١) .

وأولى هذه المحاولات الجركسية في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ) (١٣٤٥ - ١٣٤٦ م) إذ ثار الجراكسة بسبب ولع السلطان بجمع الأموال وادخارها والتضييق عليهم في النفقات ، وحرص على هذه الثورة الأمير غرلوا الجركسي شاد الدواوين (٢) . وبدأ غرلوا بإغراء الترك على خلع السلطان شعبان بأن كتب إلى يلبغا اليحياوي نائب دمشق بالخروج عن طاعة السلطان حتى إذا خرج السلطان لقتاله يمكنه أن يثير عليه عسكره ويخلعه ، وتحققت المؤامرة إذ ما كاد عسكر السلطان يصل إلى منزلة السعيدية حتى أعلنوا العصيان وعادوا مطالبين السلطان بنفقاتهم ، ولم تفلح جهود السلطان شعبان في مقاومتهم ، فقبضوا عليه ، وبعد أن خلعوه اتفقوا على تولية سلطان صغير السن هو حاجي بن الناصر محمد ، ولقبوه بالمظفر (٣) .

والنتيجة الطبيعية لهذه المحاولة هي أنها مهدت لظهور النفوذ الجركسي في عهد السلطان حاجي بدليل أن الأمير غرلوا أصبح نائب السلطنة واستحوذ على السلطان الصغير؛ وزاد نفوذه ، وجلب عدداً كبيراً من المماليك الجركسية؛ ورفع شأنهم على المماليك الترك . وذكر المقرئ أن الأمير غرلوا « أظهرهم في الدولة حتى كبرت عماثمهم وكلوتاتهم » (٤) . ثم أراد غرلوا أن يقوم بنفس الدور الذي قام به بييرس الجاشنكير . وأثارت أعماله حنق المماليك الترك ، وولدت في نفوسهم الغيرة من الجركس . ومن ثم ظهر رد الفعل في ازدياد كراهية الترك للأمير غرلوا . وحين حرص الأمير غرلوا السلطان حاجي على قتل عدد كبير من المماليك الترك اتخذوا هذه الحادثة ذريعة ليرموه عند السلطان حاجي بأنه يعمل على هدم سلطنة بيت قلاون ، فأخذه السلطان على غرة بأن

(١) المسقلافي : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٥٠ .

Ayala : The Circassians in The Mam. Kingdom p. 137.

(٢) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٥ أ .

(٤) المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

قدم له ولاية غزة ، ثم ذبحه غيلة ، وقبل تعيين الأمير ارقطاي التركي في منصب نيابة السلطنة (١) .

وبعد أن تخلص الترك من أخلص مستشاري السلطان من الجراكسة ، انقلبوا عليه رغبة في التخلص منه لاستمرار تأثيره بالجراكسة ، وميله إليهم . فحاولوا التضييق عليه ، وعابوا عليه انصرافه عن أمور الدولة ، وإقباله على اللهو بالحمام ، والشغف بالنساء ، وإحضار الأوباش للعب المصارعة بين يديه (٢) ، مما جعله يخشى على نفسه من المماليك الترك كذلك ، ولما عزم على كبح جماحهم واسترجاع حقوقه قبض على عدد كبير منهم ، ثم نفي عدداً آخر إلى سورية والوجه البحري والصعيد ولهذا انبرى نائب السلطنة الأمير ارقطاي التركي للدفاع عن إخوانه الترك ، فاتجه ومعه أكثر الأمراء الخاصكية إلى قبة النصر معلناً الثورة على السلطان . ولم يكن في وسع السلطان حاجي سوى أن يرتقى في أحضان الجراكسة فركب في أربعمئة فارس منهم لمحاربة المماليك الترك وسار بهم إلى قبة النصر (٣) .

غير أنه لم يكن بين هؤلاء الجراكسة من يخلص له بعد أن قتل كبيرهم الأمير غرلو ، ولذلك تخاذلوا عنه وسهلوا للترك القبض عليه وقتله قبل الدخول في المعركة وذلك في رمضان سنة ٧٤٨ هـ - سنة ١٣٤٧ م (٤) .

والظاهر أن مقتل السلطان حاجي على يد المماليك الترك على هذا النحو السهل شجع الجراكسة على القيام بمحاولتهم الجديدة في الميدان السياسي في نفس السنة ، وذلك حين ناصروا أمير حسين بن الناصر محمد وأرادوه سلطاناً على البلاد بعد أخيه حاجي ، غير أن الأمراء الكبار من الترك عارضوهم مفضلين عليه أخاه أمير حسن الذي بلغ الثانية عشرة من عمره وقتذاك ، ليكون آلة سهلة في أيديهم . وبعد أن تم لهم ما أرادوا وسلطنوا حسناً ولقبوه بالناصر بدأوا ينتقمون من أتباع أمير حسين من المماليك الجراكسة ، فابتزوا من سماره وبطانته وجواريه كل ما لديهم من المال ليودعوه خزانة سلطانهم الحاوية ، كما قبض السلطان على ستة منهم وأمر بهم فضربوا تجاه الإيوان ضرباً مبرحاً ، ثم حبسوا بخزانة شمائل . وعاد السلطان حسن يخشى انتقام المماليك الجراكسة

(١) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ٢ ورقة ١٥ ب .

Muir: The Mamluk Dynasty, p. 92.

(٢) الشوكاني : البدر الطالع ج ١ ص ١٨٧ .

(٣) الميمني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ١ ورقة ٨٢ .

(٤) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ٢ ورقة ١٦ ب .

فنكل بعدد كبير منهم ، اشتركوا في مؤامرة لخلعه في نفس السنة ، ووزع عدداً على الأمراء ، ونفى الباقي (١) .

ومع أن الناصر حسن عمل تحت ضغط الأمراء الترك على إضعاف شأن الجراكسة فإن سوء الأحوال الاقتصادية في الدولة منذ سنة ٧٤٨ هـ والإسراف في القصر؛ وما نتج عن ذلك من الارتباك المالي دفعت الناصر حسن وكبار أمرائه من الترك إلى محاولة علاجها بخفض مصاريف القصر والماليك وبيع الممالك الجراكسة أو طردهم (٢) . ولا شك أن الكوارث التي لحقت الجراكسة نتيجة هذه الأمور أدت إلى ضعف شأنهم ، وبالتالي إلى استمرار سيطرة العنصر التركي على الوظائف الرئيسية في الدولة . غير أن ثمة ملاحظة توجب الالتفات وهي أنه رغم ازدياد نفوذ الممالك الترك في عصر الناصر حسن ، فلم يمحاولوا الاستفادة من هذا النفوذ في تدعيم فرقته أو فيما يعود عليها من نفع ، بل انقسم الأمراء الترك على أنفسهم بسبب تنافسهم على الاستئثار بالسلطة حتى صار الواحد منهم يعقب الآخر في السيطرة على البلاد ، وجعل السلاطين ألعوبة في أيديهم يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا . ولعل أبرز مثل على هذا ما قام به الأمراء من خلع السلطان الناصر حسن في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) وسلطنة أخيه صالح ، الذي لم يستطع التصرف في الأمور رغم أنه جاوز الرابعة والعشرين . ثم إنه حين شعر الأمراء بميل السلطان صالح للأمير طاز ، خلعوا السلطان صالح وأعادوا السلطان الناصر حسن إلى السلطنة في شوال سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) (٣) .

ولاشك أن هذا الانقسام بين الأمراء الترك وما تبعه من ازدياد التنافس بينهم صار عاملاً من عوامل ضعف الدولة المملوكية الأولى وسقوطها بالتالي ؛ إذ فضلاً عن إضعاف شخصيات السلاطين أو تولية صغارهم ممن لا يحسنون التصرف ، فإن مقاليد الأمور — حين أصبحت بيد الأمراء الترك نتيجة هذه الأمور — عاوت على ازدياد ثرائهم لدرجة مكنتهم من شراء أعداد كبيرة من الممالك أملاً في زيادة نفوذهم وإمكان اغتصاب السلطنة ؛ وأبرز دليل على هذا ما حدث حين ترك الناصر حسن مقاليد السلطنة إلى الأمير شيخون ، فاشترى عدداً كبيراً من الممالك ، وبعد أن قتل انفرد الأمير

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٤٧ ، ٧٥١ .

(٢) نفس المرجع الجزء ص ٦٦٥ - ٦٦٨ - ٦٦٩ . J. A. O. S.P.P. 13'i. f.f.

بين العسقلاني الطريقة التي سعى بها غرلو إلى الإثراء سريعاً ، وذلك باستحداث ديوان البذل في سلطنة شعبان بن الناصر محمد وهو ديوان تولى تحصيل ما يفرض على من يأخذون أقطاعات أو وظائف راجع الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٩٠ .

(٣) راجع سرور : دولة بني قلاوون ص ٥٩ - ٦٠ .

صرغتمش الناصري بتصرف شئون الدولة ، وضم إليه ممالك شيخون ، وأسكنهم مع ممالكه في مناظر الكبش . وما لبث هو الآخر أن استبد بالسلطة بعد أن أصبح نائب السلطنة وطمع في الاستقلال بالسلطنة . وحين أدرك السلطان حسن هذا الأمر اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، وقبضوا عليه في رمضان سنة ٧٥٩ هـ . وأثار هذا العمل غضب ممالكه ، فاشتبكوا مع الممالك السلطانية في معركة دارت فيها الدائرة على أتباع صرغتمش ، وخلا الجو مؤقتاً للناصر حسن .

والواقع أن اتجاه كبار الأمراء الترك إلى التسابق في اقتناء الممالك فتح الباب أمام تدفق العناصر المملوكية المختلفة بما فيهم الجراكسة ، ومعنى هذا أن اقتناء كبار الأمراء الترك للممالك وقتذاك لم يصبح على أساس عنصري ، بل إنهم فتحوا أبوابهم لتجار الممالك كما فتحوها لمختلف العناصر من الوافدية الذين وجدوا في القاهرة الأمل المنشود . ثم إن نائب السلطنة في القاهرة صار له نصيب الأسد من أعداد الممالك وذلك بسبب كثرة أمواله ، وتمكنه من شراء أعداد كثيرة ، فضلاً عما يؤول إليه من ممالك النائب السابق . ومن الأمراء الترك الذين صار لهم النفوذ بعد صرغتمش وورث ممالكه ، الأمير يلبغا الخاصكي العمري الناصري (١) ؛ أقره السلطان حسن أمير مجلس في شوال سنة ٧٥٩ هـ عقب القبض على صرغتمش ، فورث أمواله وممالكه ، ثم اشترى عدداً كبيراً من الممالك من ماله الخاص ، بلغ عددهم نحو أربعة آلاف مملوك وتابع يلبغا العمري تعليمهم العلوم الدينية والحربية في مناظر الكبش التي أقام بها (٢) . كما أخذ في ترقيةهم والإنعام عليهم (٣) ، حتى أصبحت مناظر الكبش تنافس القلعة في السيادة . وعاد السلطان حسن يخشى على نفسه من هذا العدد الكبير من ممالك يلبغا العمري فضلاً عن فقدانه الثقة في الممالك السلطانية . ولذلك اتجه إلى سياسة جديدة أساسها الاعتماد على أولاد الناس ، فأمر عدداً كبيراً منهم وقدمهم على الممالك لا رغبة فيهم ولكن على قوله « مصلحة لي ، وللرعية ، وللبلاذ ، فأما مصلحتي فإنهم لا يخرجون عن طاعتي ، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك خوفاً على أملاكهم وأرزاقهم بخلاف الممالك فإنهم لا رأس مال لهم . في مملكة من الممالك ، وأما للرعية فإن عندهم شبع نفس وعدم طمع ، وأيضاً خوفاً مني لا يظلمون أحداً ، وللبلاذ فلا شك فإنهم أعرف بالأحكام والسياسة والأخذ بخواطر الرعية من الممالك . » (٤) .

(١) - عن جنس يلبغا العمري راجع البغدادي : عيون أخبار الأعيان (شمسية) ورقة ٤٨٠ .

(٢) Iorga : Notes & Extraits TII P 532;

(٣) المستقلاني : الدور الكامنة ج ٤ ص ٤٣٨ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٥ أ ، ب - أولاد الناس هم أبناء

الأمراء الذين ولدوا في مصر أي لم يشتروا رقيقاً .

ووجدت طوائف المماليك في هذا التصريح خطراً داهماً على مركزهم ، وتزعم يلبغا العمرى الثورة على هذه السياسة التي اتجهت إلى الاستغناء عن جميع المماليك . وبدأ يلبغا ثورته بالاعتراض على أعمال السلطان حسن فأنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وسماحه للطواشية بالتدخل في أمور الدولة . وعظم ذلك على السلطان الذى أخذ يتحين الفرص للتخلص منه . غير أن يلبغا علم بنوايا السلطان نحوه فتصدى له في سرحة الصيد ، واشتبك معه في معركة صغيرة ، هزم فيها السلطان ، وهرب إلى القلعة ، ثم خرج المماليك السلطانية لقتل يلبغا ، فانهزموا على يديه ، وتقدم يلبغا إلى القلعة وقتل السلطان حسن في جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) وأقام ابن أخيه محمد بن حاجى سلطاناً وهو في الرابعة عشرة من عمره (١) ، غير أنه لم يكن من المنتظر أن يستمر السلطان الجديد طويلاً في السلطنة ، ولم يلبث أن ادعى عليه يلبغا أنه يدخل بين نساء الأمراء ، وأنه باع في زنبيل كعكاً وأخذ ثمنه على سبيل المداعبة ، وأنه يعمل مكارى للجوارى ، ويفسق بالحرم ويترك الصلاة ويجلس على كرسي الملك جنباً (٢) . وبهذا تمكن الأمير يلبغا العمرى من خلع السلطان محمد بن حاجى في ١٥ من شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) وسلطن شعبان بن الناصر حسن وعمره آنثى نحو العشر سنوات . وصار يلبغا أتابكه وأصبح صاحب الأمر والنهى داخل القلعة وخارجها ، ولم يكن للسلطان شعبان سوى الاسم .

وبالغ الأمير يلبغا العمرى في الإحسان إلى مماليكه الذين عرفوا باليلبغاوية ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، وأصبح موكبه معهم من أعظم المواكب ، كما صار عدد كبير من مماليكه نواباً في البلاد ومقدمى ألوف . والحلاصة أن اليلبغاوية سيطروا على عدد كبير من الوظائف وبلغ نفوذ يلبغا درجة أصبح معها السلطان شعبان | هو الآخر يخشى على نفسه منهم ولا سيما بعد أن أثرى يلبغا ثراء فاحشاً حين استولى على أموال النصارى والرهبان وأخذ ما في الأديرة من أموال بعد رحيل القبارصة عن الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) (٣) .

ولم ينقل السلطنة المملوكية الأولى من سطوة يلبغا العمرى سوى انقسام اليلبغاوية أواخر سنة ٧٦٧ هـ بسبب سوء سياسة يلبغا نفسه ، وذلك أنه قتل عدداً كبيراً منهم ، كما تنوع في تعذيبهم على أدنى جرم ، فأضمرؤا له سوء ولم يتردد السلطان شعبان في الاتفاق

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٤٨ أ .

(٣) راجع النويرى : الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٦ ،

ج ٤ ص ٤٣٨ .

مع اليلبغاوية الكارهين له (١) ، فأنزل من القلعة أمير آتوك بن حسين أخى السلطان شعبان ولقبه بالملك المنصور وذلك بمسكركه بجزيرة أروى (٢) . تجاه بولاق على حين نزل السلطان شعبان بماليكه ومن انضم إليه من اليلبغاوية فى الجانب الغربى من النيل . وبدأ صراع بين الطرفين ظهر فيه تقدم يلبغا العمرى فى فنون القتال ، إذ استخدم مكاحل النفط لأول مرة ضد أتباع السلطان شعبان الذين قاتلوه بالسهم (٣) . ولكن رغم التقدم الحربى من جانب يلبغا فإنه لم يوفق ؛ لأن مكاحل النفط لم تكن بعيدة المدى وانتهى أمره بالتسليم بعد أن أصاب السلطان عدداً كبيراً من أتباعه ؛ ثم أسرع السلطان وأمر بقتل يلبغا (٤) .

غير أن قتل يلبغا العمرى فى ١٢ من ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ لم يمكن السلطان شعبان من السيطرة على شئون الحكم ، لوقوعه تحت تأثير أربعة من المماليك اليلبغاوية الذين عاونوه على يلبغا وهم ، طقيتمر النظامى واقبغا الأحمدي وقجماس الطازى وأسندمر الناصرى . غير أن أسندمر الناصرى لم يلبث أن انقلب على زملائه وسجنهم بالإسكندرية ووجد السلطان شعبان نفسه مضطراً لأن يخلع على أسندمر بالاتابكية وجعل إقامته بالكبش مكان يلبغا العمرى . وأصبح أسندمر منذئذ مالكا لمن بقى من اليلبغاوية فضلاً عن سيطرته على أجناد الجيش بحكم استقراره فى منصب الأتابكية بالقلعة — وما لبث أسندمر أن انقلب على السلطان شعبان فى المحرم سنة ٧٦٩ هـ (سنة ١٣٦٨ م) وقاد ألفاً وخمسمائة من اليلبغاوية فى ثورة على السلطان شعبان ، وزاد اضطراب أحوال البلاد بسبب «طغيان هؤلاء الأجلاب وكثرة عبثهم وتجاوزهم حدود الشريعة والملك» (٥) ، مما حدا بعدد كبير من العامة إلى الوقوف فى جانب السلطان . وحين تقدم اليلبغاوية من وراء القلعة لم يستطيعوا الوقوف أمام العامة والمماليك السلطانية الذين استماتوا فى القتال حتى تمكنوا من القبض على عدد كبير من اليلبغاوية ، فسجنت جماعة منهم بالإسكندرية ودقت أعناق جماعة أخرى ، ونفى البعض الآخر إلى الكرك .

(١) ابن تترى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٢٤٨ أ ، ١٧٩ ب .

(٢) تعرف اليوم باسم الجزيرة أوجزيرة الزمالك راجع رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ص ٢٠٥ .

(٣) ذكر Ayalon أن المالك سبقوا العثمانيين بستين سنة فى استخدام هذا السلاح النارى كما أن أوربا سبقت الممالك فى استعمال هذا السلاح بنحو أربعين سنة — راجع :

Ayalon : Gunpowder and Firearms in the Mam. Kingdom p. 4

(٤) قال بعض الشعراء يهجو يلبغا العمرى :

بدا شقا يلبغا وعدت عداه فى سفته إليه

والكبش لم ينقله وأضحت تنوح غربانه عليه

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

وتبدو أهمية هذا الصراع في وجود أثر الجراكسة فيه ، إذ اشتملت جماعة اليلبغاوية الذين نفوا إلى الكرك على ممالك من الجراكسة كما اشتملت على ممالك من الترك . ومن هؤلاء الجراكسة برقوق ، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للسلطنة المملوكية الثانية ، وجركس الخليلي الذي عاون برقوق في التخلص من كثير من الصعاب التي واجهته ، أما الممالك الترك فتذكر المصادر من بينهم بركة الجوباني (١) .

ومعنى هذا أن صراع الجراكسة في هذه المرة لم يتخذ صورته العنصرية كما حدث من قبل بل اتخذ صورة حزبية ، ولعل هذا التغيير يرجع إلى قلة عدد الجراكسة بسبب الاضطهادات المستمرة منذ أواخر عهد الناصر محمد مما دفع الجراكسة إلى تناسي عصبيتهم ، وإلى تحريض إخوانهم الترك اليلبغاوية على الثورة معهم على السلطان شعبان . ومع أن السلطان شعبان عصف بعدد كبير من اليلبغاوية الذين ثاروا عليه فإنه أبقى معه بالقلعة من وثق في إخلاصه منهم . ومن هؤلاء الأمير منكلي بغا الذي عينه السلطان شعبان أتابكاً للعساكر وزوجه من ابنته حتى يطمئن إليه . كما استقر بمنجك اليوسفي في نياحه دمشق . غير أن هذا الفريق من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة صاروا من العوامل التي أعادت لإخوانهم اليلبغاوية المنفيين إلى العمل في مصر وسورية ؛ ذلك أن الأمير منكلي بغا أتابك العساكر عاتب السلطان في شأن هؤلاء المنفيين بقوله « إن في إتلافهم قص جناح الدولة وإنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم (٢) » . كما أن أحد الأمراء اليلبغاوية الكبار وهو الأمير طشتمر الدوادار ظل يبيت الرعب في نفس السلطان من فرق الممالك الأخرى حتى اقتنع السلطان بأهمية وجود منافس لفرق الممالك الأخرى ، فعفا عن المنفيين وسمح لهم بالعمل عنده أو عند نوابه في مصر وسورية .

والواقع أن هذا التردد الذي وضع في سياسة السلطان شعبان بالإضافة إلى غيره من عوامل ضعف السلطنة جعل الدولة المملوكية الأولى تقترب من نهايتها ، والدليل على هذا أن طشتمر الدوادار لم يكن مخلصاً في نصحه للسلطان ، بل كان يأمل بهذا أن يجمع شمل اليلبغاوية ليستبد بهم على السلطان . وكيفما كان الأمر عاد اليلبغاوية ليعمل بعضهم في سورية وليقيم أكثرهم للخدمة في القلعة . بعد أن هدم السلطان شعبان مناظر الكبش التي هاجم منها الأمراء القلعة (٣) .

ولعودة الممالك اليلبغاوية إلى القلعة أهمية بالغة في وقت تسابق فيه الأمراء على

(١) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٨ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٣) راجع المقرئ : المواظف والاعتبار ص ٢ ص ١٣٤ .

السلطنة وضعفت فيه فنون الفروسية بين المماليك السلطانية الترك ، وذلك أن السلطان شعبان أفاد من اليلبغاوية في تعليم مماليكه فنون الفروسية التي اتقنوها : ومهد امتيازهم في هذه الفنون لسبقهم في شغل الوظائف الرئيسية في الدولة (١) .

وبدا كأنما الأحوال آنذاك تنذر بزوال حكم بيت قلاون وتمهد للعناصر الطامعة في الحكم أن تصل إليه . إذ فضلاً عن سوء الحكم فإن القحط والوباء دفعا الناس إلى تمنى زوال سلطنة هذا البيت وإلى عدم الثورة عند قتل السلطان أو عزله ، كما حدث في عهود أكثر السلاطين السابقين . والواقع أن ثمة عاملاً هاماً ظهر واضحاً في عهد السلطان شعبان ؛ وهو أن اليلبغاوية الجراكسة الذين عادوا من المنفى تكتلوا مع إخوانهم الجراكسة في القلعة . ثم إن اضطراب الأحوال الداخلية وخروج نواب البلاد عن الطاعة وانصراف السلاطين إلى علاجها والقضاء على الحركات الثورية ، كل ذلك مهد الطريق أمام العناصر الجركسية لإكثار عددهم وتقوية نفوذهم تمهيداً لإعلان سلطنتهم الجديدة .

والواقع أيضاً أن وصول الجراكسة إلى الحكم يمثل حركة عنصرية ، برغم أنها بدأت في صورة حزبية إذ عملوا مع غيرهم من عناصر المماليك زمن الدولة الأولى على إضعاف سلطنة بيت قلاون ، حتى إذا كثرت عدد الجراكسة أخذوا يصارعون غيرهم من العناصر المملوكية وهي العناصر التركية من أجل السيطرة على الجيش حتى تمكنوا في النهاية من إزالة حكم الأتراك ، وإقامة حكم الجراكسة بالقاهرة .

(١) ابن خلدون : المبر وديوان المبتدأ والمبر ج ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

الفصل الثاني

الأمير برقوق اليلبغاوى ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣ م - دخول برقوق
فرقة اليلبغاوية - اشتراك برقوق فى ثورة اليلبغاوية على
السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨ م - عودته الى
العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣ م فى خدمة أمير على وأمير حاجى
ابنى السلطان شعبان - قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦ م
وتولية ابنه أميراً على السلطنة - الصراع بين اليلبغاوية
والمماليك السلطانية - سيطرة اليلبغاوية على الوظائف
ألهامة - تعيين برقوق فى منصب الامرة المملوكية فى خدمة
الأمير ايوبك البدرى اليلبغاوى - استغلال برقوق للشحناء
بين زعماء اليلبغا - تولية البدرى الاتابكية سنة ١٣٧٧ م -
ترقية برقوق الى أمير طبلخانة - طمع ايوبك فى السلطنة
سنة ١٣٧٧ م وفشله ازاء معارضة الخليفة - تحريض برقوق
المماليك الترك على ايوبك البدرى - المنافسة الخافية بين برقوق
وايوبك البدرى والتخلص منه - الاتفاق بين اليلبغاوية بزعامة
برقوق على الانفراد بشئون الدولة - تعيين برقوق فى منصب
أمير سلاح - استبعاد برقوق وبركة بالأمور دون يلبغا
الناصرى - وصول برقوق الى منصب الاتابكية سنة ١٣٧٧ م -
سعيه الى تعيين أقاربه فى وظائف الدولة - التنافس بين برقوق
وبركة واشتداد النزاع بين الترك والجرکس - مؤامرة فى
صلوف الجراكسة سنة ١٣٧٩ م لهدم نفوذ الجراكسة - اثاره
برقوق للعامه على بركة - انتصار الجراكسة بزعامة برقوق
وسجن بركة - ثورة العرب ضد الجراكسة - اقتناء برقوق
لأعداد جديدة من الجراكسة - وفاة السلطان على بن شعبان
أواخر سنة ١٣٨١ م - تولية حاجى بن شعبان بموافقة برقوق
سنة ١٣٨١ م - اتجاه برقوق نحو العسامة - تولية برقوق
السلطنة سنة ١٣٨٢ م .

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالقة بأذهان اليلبغاوية
الذين عادوا الى القاهرة ، غير أن الذى يثير الدهشة حقاً أن يفكر فى هذا الأمر مملوك من
أجناد اليلبغاوية العائدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسى .

وأصل هذا المملوك من قبيلة كسا الجركسية (١) ، ولد حوالى سنة ٧٤١ هـ

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٢ ، ٢٢٣ .

(١٣٤٠ م) (١) وحين بلغ العشرين من عمره بيع في أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان بن مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية (٢) ؛ ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٣ م) (٣) وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخاصكى وهو وقتذاك أتابك السلطان محمد بن حاجى . ومر برقوق فيما مر به غيره من ممالك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد فى مناظر الكباش ، التى جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل فى مظاهر القوة والسيادة ، وعمل بها على إضعاف المركز السياسى لأسرة قلاون تمهيداً لتحويل العرش عنها (٤) .

ونظراً لما لمسهُ الأمير يلبغا العمرى الخاصكى فى مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات ، وأصبح برقوق من جملة ممالكه الكتابية المقربين إليه (٥) واقترن اسم برقوق بالعثماني نسبة إلى التاجر الذى جلبه ؛ ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من سبق فى ميدان الفقه وسائر العلوم الدينية . وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الحلقة (٦) والتفوق فى فنون الحرب والفروسية (٧) .

وأخلص برقوق لسيدته أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨ هـ - سنة ١٣٦٦ م (٨) . ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية . وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان «بحسب دأبهم» ونفى العناصر الثورية منهم ، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٦ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب .

(٣) Huart : Hist. Des Arabes T 11 p. 59.

(٤) راجع ابن الطولونى : النزهة السنية ص ٢٢١ .

(٥) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٧٥ .

Iorga : Notes & Extraits TII p 532.

(٦) الإسحاقى : لطائف أخبار الدول ص ١٤٠ . ينفى ابن تغرى بردى ما ذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقاً لتبوءه فى عياله ويؤيد رأيه بأن أقاربه وإخوته حين حضروا نادوه « برقوقاً » راجع النجوم ج ١١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، المنهل ج ١ ورقة ٣١٦ أ ، ب ، انظر السيوطى ، كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأشرف قايتباى ص ٩

(٧) العيني : السيف المهند ص ٣٩ .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

إلى الكرك (١) سنة ٧٦٩ هـ سنة ١٣٦٨ م ، غير أن اليلبغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلى بغا ، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كالت مساعيهم بالنجاح ، فأفرج السلطان شعبان عنهم فى سنة ٧٧٣ هـ - سنة ١٣٧١ م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركى من اليلبغاوية هو بركة الجوبانى ليعملا فى خدمة الأمير منجك اليوسنى نائب دمشق (٢) . بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسنى لم تشبع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء . وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التى تمهد لعودته إلى القاهرة ولا سيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريين وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر البحراكسة (٣) ، وأنهم سيحكمون سورية . وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً فى نفس برقوق ، مما بين أن طمع برقوق فى عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً . والخلاصة أنه ما كاد اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرون للسلطان شعبان خطورة اعتماده على مماليكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلبغاوية من سورية ، فعاد برقوق وزميله بركة فى سنة ٧٧٥ هـ - (سنة ١٣٧٣ م) مع عدد كبير من اليلبغاوية البحراكسة والترك إلى القاهرة (٤) ، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل فى القصر السلطانى فى خدمة ولدى السلطان أمير على وأمير حاجى وشغل كل منهما منصب أمير عشرة (٥) .

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عادياً ولكنه امتاز حقاً عن أمراء المماليك بدكاء فائق ودهاء خارق ، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكائه ودهاءه فى التدبير على السلطنة المملوكية الأولى ، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر (٦) . ولم لا ؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم فى اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم .

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين : أولاهما ، أن يعمل برقوق - وهو أمير عشرة - من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش ، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد

(١) ابن شلدون ، المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢ ،

راجع بداية حياة برقوق فى العسقلانى : تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣ .

(٢) المقرئى : المقفى الكبير ج ١ ورقة ١٨ .

(٣) Iorga : op cit. p. 532 .

(٤) ابن قاضى شعبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلة ٣ ورقة ١٤٦ .

(٥) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٤١ .

(٦) الجبرق : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٢٠ .

الجراكسة في الدوائر المملوكية ، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن الجراكسة من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وقتذاك ، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية في إثارة الممالك اليلبغاوية جميعها بما فيهم من ترك وجركس على الممالك السلطانية أنصار بيت قلاون ، حتى إذا نجح في إضعاف شأن الممالك السلطانية استعان بالممالك الجراكسة في داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على الممالك الترك في فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان . وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضلالة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلاني الدوادار - وهو أكبر الأمراء اليلبغاوية آنذ - دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة ، ورتب برقوق لصهره الخطة وخلاصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذي شفاه من الطاعون (١) وبعيداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته . ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار ، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر ، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه ، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والخليفة المتوكل . وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرفية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد في إخلاصهم له ، ومنهم الأمير يلغا الناصرى الصغير (٢).

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدراً عنه شر المؤامرات ، بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان في العقبة في الوقت الذي يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذين بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل . وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة بتحريض الممالك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمستحققاتهم في وقت لم يكن يملك في يده شيئاً (٣) . ونجحت الخطة حين ضيق الممالك الأشرفية على سلطانهم الخناق وحاولوا قتله ، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ ، انظر كذلك .

Muir : the Mamluk Dynasty p.p. 101—201

(٢) أصله من ممالك الأمير يلغا الناصرى الكبير فنُسب كنسبة وقد أصبح

مقدماً في دولة الصالح حاجى - راجع المسقلاى الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤٠ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان : ورقة ١ ب .

ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة . ولكن طشتمر تخلى عن السلطان شعبان (١) الذى أسرع وهرب تحت جناح الظلام إلى القاهرة . ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفتنوا إلى أهداف مدبرى هذه المؤامرة . وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل ، ولكن الخليفة رفض موافقتهم (٢) ؛ فأسقط في أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة .

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو في العقبة نفذ باقى اليلبغاوية في القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمراءهم الترك وهم طشتمر اللقاف وقرطاي الطازى واينبك البدرى وقطلقتمر العلائى . وادعوا أن السلطان شعبان مات وأنهم يريدون سلطنة ابنه أمير على . ولعب برقوق دوراً هاماً في ترتيب ثورة القاهرة (٣) التى تمكن فيها الثوار من كسر شبك الزمام المثل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطانى وسلطنوه ولقبوه المنصور وذلك في ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ سنة ١٣٧٦ (٤) .

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة في الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مخفياً بالقاهرة ، وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من اليلبغاوية قد يحدث انقساماً في صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد .

أما مشكلة المماليك السلطانية فلانها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لابس زى النساء ، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق (٥) ، وقضى اليلبغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة . وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام اليلبغاوية في ذى الحجة سنة ٧٧٨ هـ (سنة ١٣٧٦ م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى اليلبغاوية . وما لبث أن تدعم مركز اليلبغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقروا شرعية إجرائهم وجددوا البيعة للسلطان على .

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٩ .

(٣) راجع ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣١٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٨٩ .

(٥) الميمنى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ - ٢٠٧ - راجع كذلك السيوطى

تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٥ ب .

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح في تهيئة الفرصة لليلبغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلبغاوية سادة الجيش المملوكي (١) . ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة في الدولة فصار طشتمر اللفاف قائد ثورة القاهرة أتابك العساكر بمصر وتولى أئنبك البدرى أمير آخور كبير وقرطاي أطارزي رأس نوبة .

وأما طشتمر الدوادار الذى حرض على ثورة العقبة فإن كبار الأمراء اليلبغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للمماليك الأشرفية ، فعينوه بناية دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته (٢) ، وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من البحراكسة إلى العمل في خدمة أئنبك البدرى (٣) .

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلبغاوية على المماليك السلطانية (الأشرفية) هي بداية التطاحن بين الأمراء اليلبغاوية الترك فيها على الزعامة . أما برقوق فإنه استغل الشحنة بينهم ورسم لهؤلاء الزعماء الخطة ليباغت الواحد منهم الآخر . وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاي الطازي منصب الأتابكية خافاً لطشتمر اللفاف الذى مات سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) حتى صاهر الأمير أئنبك البدرى أمير آخور الأتابك قرطاي الطازي ولكن هذه المصاهرة اتخذها أئنبك البدرى وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته (٤) . وبدأ الأمير أئنبك البدرى مؤامراته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية في المحرم سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) (٥) . ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل ، وأعد الأمراء والمماليك لقتال قرطاي وأتباعه . غير أن قرطاي سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس ، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه ، حتى إذا اطمأن إلى أئنبك وحضر إليه قبض عليه أئنبك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة (٦) .

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقاً دبر هذه المؤامرة كذلك ويمكن أئنبك من الوصول إلى الأتابكية (٧) ، فانتقل أئنبك بمماليكه إلى مدرستي السلطان حسن والسلطان شعبان ، ثم أخذ الأمير أئنبك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه

(١) انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٨٠ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٧ .

(٦) العيني ، عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣ .

(٧) راجع ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٦ .

سلطاناً ، فأخذ يرقى أبنائه ومماليكه (١) . وحظى برقوق بالترقى من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة (٢) . ومع هذا بدت خطوة إعلان أينبك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد ، فأعلن رغبته في سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلبغا العمرى الكبير ، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلبغاوية فإنه يسهل عليه نخله متى أراد لضعف شخصيته . غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة البحرية لأن أحمد بن يلبغا العمرى « ليس من بيت السلطان » (٣) ؛ فلم يسع أينبك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواصل في الخلافة مكانه (٤) في ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ .

وحسب الأمير أينبك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستعانة بالخليفة الجديد ويتأييد عدد كبير من نخشداشيته بعد ترقيتهم السريعة . ولكن الخطوة البحرية التي أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلبغاوية في سورية ، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع أينبك البدرى . فثاروا في ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) على أينبك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق لليلبغاوية إبعاده إليها . وحين أحس الأمير أينبك بالثورة استشار برقوقاً في أمرها ، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإخماع الثائرين .

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أينبك على استجلاب رضا الشعب ، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستصحبه إلى سورية ، كما صاحب الحملة السلطان على ، ومن الأمراء اليلبغاوية الترك اختار أينبك يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة (٥) . ووجد الأمير برقوق في هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أينبك ، فوضع خطة لقتل أينبك أو عزله ، عهد بتنفيذها إلى يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح

(١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ، ورقة ٧٣ أ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقى إلى أعلى المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة أصبح بيد كبار الأمراء إرضاءً لأتباعهم ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٤) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة) .

(٥) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠ .

المقرئى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاتجاهه وأطماعه فى السلطنة فى قوله « غير أنه لدهائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماماً » (١) .

والخلاصة هى أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أينبك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩ هـ سنة ١٣٧٧ م واضطر أينبك إلى الفرار ونجحت خطة الأمير برقوق (٢) ، وهذأت الأحوال مؤقتاً فى سورية وعاد الأمراء الثلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ (٣) .

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى . على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقديماً لليلبغاوية ، لا احتراماً لأقدميته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر . ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور ، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصيتى من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون « أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير » (٤) ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاون ، ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغاوية . واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة فى كثير من الأمور حتى أقنعه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعمامة الأميرين دمرداش وتمرباي الحسنى ، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما فى الوظائف التى خلت (٥) .

ثم بدت أمام برقوق ناحية فى غاية الأهمية وهى أنه وجد أن الأتابك أصبح يسكن الاصطبل بعد هدم مناظر الكبش ، وأن الأتابك نتيجة هذا يسيطر على الخيل والسلاح ، فما زال حتى أقنع الأمير يلبغا الناصرى بترك الاصطبل والخروج من القلعة ليسكن فى بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل (٦) .

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد وظهور عدة محاولات من جانب بعض الأمراء الترك لإنقاذ سلطنة بيت قلاون

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣١٢ .

(٢) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أينبك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاون بدليل أنه صحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة . راجع ابن دقاق : الجوهر الشمين ج ٢ ورقة ١٧٠ .

(٣) العيى عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٧ .

(٥) ابن دقاق : الجوهر الشمين ج ٢ ورقة ١٧٤ .

وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة (١) . وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد ، فاتفق مع يلبغا الناصري وبركة الجوباني على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية في مصر (٢) . وأراد بهذا أن يتخلص من طشتمر الدوادار نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك ، كما أن في هذا التعيين ما يرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون. ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين ، وحين وصل القاهرة في ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان في استقباله (٣) ، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصري لطشتمر الأتابكية ، وأن يعمل بدلاً منها في إمرة السلاح .

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد في الدولة ، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالى بالاصطبل للتدبير عليه ، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصري إلى نيابة طرابلس (٤) . غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخفية بين هذين الأميرين . واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية ، إذ تسابق الأميران في شراء المماليك من جنسيهما « استغلاظاً لشوكتيهما واكتنافاً لعصبيتيهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما » ... كما أخذوا ، « يبدلان الجاه لتابعيهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ، ويخصان بالإمرة من ينجح من أهل الدولة لهما ، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما » (٥) ، وخطا برقوق خطوات واسعة في هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك ، وجعل بعض هؤلاء نواباً في البلاد (٦) .

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر ، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق (٧) . ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ما ظهرت واضحة في غرة ذي الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبيهما المتكررة في نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النيابة في سورية ، أو

(١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٤ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .

(٣) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ٤ أ (نسخة خطية) .

(٤) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧ .

(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٧) الميى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ - ٢٢٩ .

مطالبته بعزلهم وتولية أصحابهما مكانهم ، ثم طالبا آخر الأمر بنى الأمير كتبغا رأس ثوبته أو تسليمه لهما ، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به في ٩ من ذي الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة (١) . ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاي طواشية . ولم تجد شجاعة تقطاي حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيراً من أتباع الأميرين (٢) . وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كتبغا وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق الذي قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعه وحبسهم بالإسكندرية ثم نفى باقي اليلغاوية من أنصار طشتمر إلى قوص في ١٣ من ذي الحجة سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) (٣) . وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٤) ، كما عين أحد أقربائه من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسي أميراً أخور (٥) . وحرص برقوق على استمرار سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمر دأش أميراً أخور ، وأسكنه معه في جانب الاصطبل . وبدأ كائناً الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء في هذه السنة بمصر واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق :
إن برقوق الغصن كعب به في الناس أخضر (٦) .

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور في سرعة عجيبة في وقت لم يعد للسلطان على أحد أي نفوذ . وبدأ كائناً الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط ، إذ زالت هيبتها من نفوس الناس ، وانصرف الناس عن السلطان ، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد في الدولة . وعبر الناس عن هذا الموقف الغريب بقولهم : « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة » (٧) .
ومع أن الخطوة التالية تركزت في ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله بن بركة ، إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب ، وأصبح لزاماً عليه أن يبذل أقصى جهده لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم . بيد أنه على حين أخذ يعد عدته لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه ، وهو الأمير إينال اليوسفي الجركسي . وكادت

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٩٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ٤ب (مخطوط) .

(٥) Sauvaget : Noms Et Surnoms Des Mam., pp. 39—40

(٦) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٩٤ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٣ .

هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلاصتها أن الأمير إينال اليوسفي كان شديد الكراهية لبركة ، وطالما حرض الأمير برقوق للثورة عليه وقتله ، ولكن برقوقاً لم يجبه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال ، فانتهاز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة في شعبان سنة ٧٨١ هـ (سنة ١٣٧٩ م) (١) ، وخروج بركة في نفس الوقت للصيد خارج القاهرة ، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية . وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ في نهب بيت برقوق وما في خزائنه (٢) ، ثم خدع صغار ممالك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه في خطته (٣) ، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلي ، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق ، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه ، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض لإجابة طلبه (٤) .

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مسرعاً إلى القاهرة ، ونهض لإنقاذه قريبه ايتمش البجاسي أمير أخور ، فأنزله أيتمش في اصطبله وجعل ممالكه في خدمته . وقصد برقوق القلعة بممالك ايتمش ، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق . وبعد أن أحرق برقوق باب السر - أحد أبواب القلعة - استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى ، والحجارة (٥) . ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن ممالك برقوق حين رأوا أستاذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهام واضطروه إلى الفرار وفي جسمه نشابة (٦) . ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن يستدل منه على شركائه في المؤامرة دون جدوى ، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكثني برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره (٧) .

-
- (١) ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .
(٢) السلاحي : مختصر التواريخ ورقة ٨١ ب .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .
(٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ (شمسية) ورقة ١٧٦ .
(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٨ .
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٥ - بما قاله ابن المطار الشاعر في هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابتة نهار الاثنين في عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة في هذه المرة بالثورة على برقوق دفعه إلى الشك في مدى إخلاص عنصره له مما جعله ينقلب على الجراكسة، وقبض على من اشتركوا مع إينال في الفتنة، ثم استدعى يلبغا الناصري الذي أبعدته من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال (١). وحين حضر بركة اجتمع ببرقوق وبحث الاثنان الموقف واتفقا على التعاون في توزيع الوظائف التي خلّت وشغلها بالمقربين من أتباعهما. ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة في هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصري في هذه الظروف ذو قيمة كبيرة في كسب الجولة المقبلة. ولذا بدأ برقوق يعدّ عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جدد من عوامل.

وأول هذه العوامل ما ظهر من كراهية الناس لبركة بسبب قسوته، حتى إن العلماء تدمروا حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠ هـ (٢)، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها لإقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم (٣). واستغل برقوق سيرة بركة السيئة، وكراهية العلماء له وشهرته، كما ملأ الأسماع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين في الوصول إلى مناصب القضاء (٤)، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة (٥).

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق، دبرها المماليك السلطانية الترك، وبعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده (٦). ولاشك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال في المحيط السياسي بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من اهتمام الناس الجانب الأكبر.

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستبداد بأموال الدولة امتاز برقوق بالثبوت في الأمور وميله

-
- (١) المرجع السابق والجزء ص ٤٦٨ .
(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢٣٦ .
(٣) Ziadeh. N.: Urban Life In Syria : p. 42
(٤) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢ .
(٥) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ١٠٩ ، ص ١٢٦ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٦ .

إلى تغليب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيراً ما عارض برقوق أصحاب بركة في استبدادهم بالأموال وضرب على أيدي الكثيرين منهم ، فلا عجب أن عمل ممالك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمور الدولة دونه والغدر به (١) .

وثمة ناحية توجب الالتفات في هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق ، هي أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة — وهم قلة — فرقتين من الترك ، أولاهما فرقة الأشرفية ممالك ممالك الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق ، وثانيهما فرقة ممالك بركة ، وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسنى لهم تحقيق مآربهم . ولم يشأ برقوق أن يحارب في ميدانين بل أخذ يتوذر إلى الأشرفية ويقابلهم في طباقهم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢) ؛ على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير في الوظائف لتأييد مركزه . وأهم هذه التغييرات إبعاده بعض الممالك الترك إلى نيايات الشام (٣) ، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة ، كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى . وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض في تعيين ممالك منافسه ويحل في الوظائف الرئيسية الممالك من بنى جنسه . واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما في إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق . ثم تأزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى ، أمير أخوره وأحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه ، ورفض برقوق بطبيعة الحال ، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب في التنحي عن وظيفته بشرط ترشيد السلطان ، وفي نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة . وبذل القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة في الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووحد ألا يتحدث في أمر من أمور الدولة . وسر برقوق لهذه النتيجة ، وخلع على من سعى في الصلح وجمع الأمراء للعب في الميدان ابتهاجاً بعودة الوثام (٤) .

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لحاً إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول في معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة ، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تتم استعداداته ؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات في أول ربيع الأول سنة ٧٨٢ هـ

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٣) راجع العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها على أميرين من أتباع بركة (١) . وكانت هذه هي الشرارة الأولى في هذا الصراع الذى عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركى بالقاهرة (٢) . وأوضح المقرئى صورة هذا الصراع العنصرى السافر فى قوله . « وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق ، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة ، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أنزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالحراقة من الاصطبل ، ودقت الكئوسات جميعاً بالطبلخاناه من القلعة (٣) » .

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكنته من السيطرة على السلاح ، كما زاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه ، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغیان الأمير بركة .

وبدأ برقوق فى تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلقة والأجناد البطالة طوائف ، وركز كل طائفة منهم على تربة من التراب فيما بين القلعة وقبة النصر (٤) ، وعزل برقوق والى القاهرة الموالى لبركة وأعاد حسين ابن الكورانى المعروف بشدته وصرامته التى سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوائت أصحاب السلاح وأخذ ما فيها ، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق ، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب . وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل ، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة للقلعة ودار الضيافة وصهريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة فى هذه المنطقة للأمير بز لار العمرى (٥) .

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ايتمش البجاسى الذى نادى فى العامة بأن « من قبض مملوكاً من ممالك بركة فله بركة ولنا الرمح » (٦) . كما حرض ايتمش على نهب بيت بركة . ووجد العامة والزعر فى هذا كله فرصة طيبة للحصول

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ ، السيوطى : تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٦ ب .

(٢) راجع العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦١٠ - ٦١١ .

(٤) ابن قاضى شعبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

(٥) المسقلانى : إنباء النمر ج ١ ص ١٤١ .

(٦) ابن قاضى شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

على غنائم في وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه . وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن نهبوه سرقوا رخامه وشبابيكه ، ثم أشعلوا فيه النيران ، وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه . وعلى الرغم من أن برقوقاً استدعى يلبغا الناصري ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركي والجرمكي أسرع يلبغا الناصري وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك (١) ، ولهذا رجحت كفة بركة في المناوشات الأولى التي اشتبك فيها عسكره مع عسكر ايتشمش (٢) .

وإذ وجد بركة نفسه مضطراً للقتال في أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر ، والثانية إلى ناحية دار الضيافة ، والثالثة إلى بين العروستين (٣) ؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين ، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بحرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيعوني بخلعة بنيابة الشام ، غير أن بركة الذي أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق ورفض قبول عرضه .

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق في هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بداً من الاستماتة في القتال رغم الخسارة التي لحقت به (٤) . والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق ، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة في أيدي أصحاب بركة (٥) .

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه في ١٠ من ربيع الأول سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) . وتفرقت عساكر بركة في هذا اليوم الذي قيل إنه اشتدت فيه الحرارة . وهرب بركة إلى جامع المقسى وظل مخفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه (٦) . واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التي

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) السلاوى : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ .

(٥) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١ .

(٦) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ١٤٣ .

قبل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها في أثناء توليه وظيفته الأخيرة . وأثرت هذه الفتنة في أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مغلقة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص (١) ، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة الموالين له ، وعزل يلغا الناصري وسجنه وقبض على مماليكه ووزع إقطاعاتهم وإقطاع بركة على المماليك الجراكسة (٢) . ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال في مصر ، بل أجرى حركة تطهير في الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه (٣) .

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة في هذه السنة (٤) ، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق ، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان (٥) ، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركي وليقضى على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم ، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه . وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر سياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين ، تلك السياسة التي قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة . ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الإسكندرية سرا بقتل بركة في السجن (٦) ، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام ، واتهمه بقتل بركة دون إذن منه . وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى ممالك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاءً متناثرة (٧) .

(١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ج ٢ ورقة ١٧٨ .

(٢) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ ، ابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٨ في ذلك يقول ابن حبيب الحلبي :

يا ويحها من حالة وشؤمها من حركة

وقبحها من فتنة فيها أزال بركة

(٤) ابن قاضي شعبة : الدليل على تاريخ الإسلام ، المجلد ٣ ورقة ١٤٦ .

(٥) من هؤلاء الشعراء القيم خلف النباري ومن قوله :

مصر صارت بعد انقباض في انشراح وقلعها مزخرف والقصور

يا إلهي احفظ لنا برقوق واحرس الجند وانصر المنصور

ابن إياس ج ١ ص ٢٤٨ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٧) العسقلاني إنباء الغمر ج ١ ص ١٤٥ .

ويلقى المقرئ على النتائج التي ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة في السلطة في قوله « فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتُتبعوا بالأخذ فقتلوا ونُفوا وسُجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنة كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك .. فلما كانت حركة إينال جهوروا بذلك وقالوا من غير احتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم » (١) .

غير أن هذه المدة التي تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العربان في مصر من الثورة رغبة في إعادة الحكم إليها . وكانت هذه فرصة موالية لقبائل العربان في مصر إذ طالما نادت طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك (٢) ، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق برأ وبجراً وتعطيل التجارة والسفر (٣) . ولعل أهم هذه الثورات التي أقلقَت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية في سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٧٧ م) هي ثورة بدر بن سلام كبير عربان الهوارة في غرب الدلتا . وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج ، ووجد بدر بن سلام الفرصة موالية لإعادة النفوذ العربي إلى مصر ، وهاجم دمنهور في خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياع . وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله في مقاومة المماليك الترك (٤) ، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين في ربيع الآخر سنة ٧٨٢ هـ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك . وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحي البحيرة حيث ضربوا خيامهم . وخدم الحظ الأمير برقوق في هذه المرة ، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من أحد العربان على خطتهم في هجوم معسكر المماليك وهم في خيامهم في أثناء الليل ، فأخذوا حذرهم وخرجوا من الخيام وكنوا بالقرب منها . فلما انتصف الليل هجم العربان على الخيام فوجدوها خالية ، وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربي وأسروا منهم أكثر من ذلك . وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعربان حاسماً ، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العربان جماهم

(١) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ .

(٢) راجع عن هذه الثورات المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠-٤٧١ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

وأغنامهم وحيولهم وعادوا بها إلى مصر (١) ، فإن عربان البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة (٢) ، كما نفي برقوق باقي عربان هوارة إلى الصعيد ليأمن شرهم (٣) .

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التي واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة يمكنه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التي اعتزم القيام بها وهي نقل السلطنة من الأتراك إلى الجراكسة ، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر (٤) ، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من العطايا، حتى بذل جهوداً كبيرة في جمعهم وإحضارهم لمصر (٥) . ولما حضر أنس والد الأمير برقوق في ذي الحجة سنة ٧٨٢ هـ (سنة ١٣٧٩ م) في عدد كبير من أقاربه وأولادهم أصحابتهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق (٦) . واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعاً، فأركب العساكر وسائر الناس «على طبقاتهم» لاستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسطة بسرياقوس . ودخل «الخواجه» عثمان وعليه خلعه بطرز زركش، وركب عن يمينه نائب دمشق، وركب أنس عن يساره . وحين التقى برقوق بوالده مدّ له والده يده فأخذها برقوق وقبلها ووضعها على رأسه إجلالاً له أمام الناس ثم أخذ في تقديم كبار أمراء مصر إليه (٧) ، وبعد أن خلع على أنس بإمرة الف (٨) ، أجلس في صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء . وما أن انتهت مراسم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التي زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة (٩) . وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده بالاصطبل كما أنزل أقاربه وبني عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم في وظائف مختلفة (١٠) .

(١) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٣٦٦-٣٦٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) المقرئزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠ .

(٤) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦٤ .

(٥) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤ ، ورقة ٢٧٣ .

(٦) المسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ١٤٨ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٣ .

(٨) المسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ١٤٨ .

(٩) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٤ .

(١٠) ابن خلدون : المبروديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٣ .

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها يعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء البحر كس ، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه « دون أن ينتطح في هذا عتران » على قول العسقلاني (١).

وفي يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (سنة ١٣٨١ م) توفي السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر ، ولم تكن له في هذه المدة من السلطنة إلا اسمها (٢) . ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون سلطنته عقب وفاة السلطان على ، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن ، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التمهيد لإعلان السلطنة لم تكن كافية ، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلبغا» (٣) حين ردد الناس هذا الخبر . ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضي التريث في الأمر ، وأن هذه الحركة لم يحسن أوانها . ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل ، وتحدث بنفسه معهم في سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان ، وفي هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه ، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقضي بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاون (٤) . وإذا لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هو أكبر من أمير حاجي الذي لم يجاوز التاسعة من عمره أحضره وسلطنه في ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) وبايعه الخليفة ملقباً بإياه بالملك الصالح ، وأكد الخليفة في تقليده للأمير حاجي بالسلطنة أن يشترك معه في تدبير أمور الدولة الأمير برقوق « لتشد الناس إلى عقدة محكمة » (٥) . وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة .

ومن الطبيعي أن تولية أمير حاجي السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ (٦) أوضحه ابن تغري بردي في قوله « بعد أن انفض الموكب أخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وفي خدمته بقية الأمراء ، يركبون في خدمته ويتزلون عنده ويأكلون السمط » (٧) . وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من اليلغاوية في

(١) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) الطيب : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ج ٣ ورقة ١٠٩٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٠٧ .

(٤) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٣-٤٧٤ .

(٦) راجع Ency of Islam Art. Barkuk

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٠٨ .

الوظائف الرئيسية (١) . كما اهتم بترتيب الأمور في الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية ، واتباع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب ؛ ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جركس الخليلي فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة في الثراء عن هذا الطريق السهل . ومن هذه الفلوس التي أخرجها الأمير جركس فلس زنته أوقية بربع درهم ، وفلس زنته نصف أوقية وفلس بفلسين . وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء . فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس ، وكان لهذا أكبر الأثر في إنعاش الحالة الاقتصادية (٢) . ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغاني (٣) بحمالة والكرك والشوبك والمنيا ، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح (٤) بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستواره وشورى وبلطيم (٥) ، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها ، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق (٦) .

أما في الخارج فإن الأمير برقوق انتهاز الفرصة لإظهار قوته ، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣ هـ على حلب موالياً إذ استطاع برقوق هزيمتهم ورددهم على أعقابهم (٧) .

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومخيفة، حتى إن

(١) أوضح ابن تغري بردي أن طريقة الوصول إلى الوظائف في وقت سيطرة الأمراء هي «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغري بردي : النجوم - ج ١١ ص ٢١٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨ .

(٣) قال المقرئ عن ضمان المغاني (الأغاني) أنه كان بلاءً عظيماً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البنات ، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها ، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحاً لا بد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحاً بأغان أو نفّس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف «المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٦» .

(٤) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء من يبتاع من أردبين فما دونهما . راجع المقرئ : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٦ .

(٥) كان مقرراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنوياً (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) .

(٦) العيني : عقد الجمان ج ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١ .

(٧) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٤٠٤ .

أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله . غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبئه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة ، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله . واتفق في هذا الاجتماع على القبض على متزعمي هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم في سجون القلعة (١) . وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة في سلسلة المؤامرات التي دبرت للوقوف أمام العنصر الجر كسي وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نفي برقوق إيتمش الخاصكي وبطا الأشرقي متزعمي هذه المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجوى « فلم يبق له معاند ، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فرقاهم إلى ما لم يخطر لهم ببال » (٢) .

ومع كل هذا ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه ، بل إنه حين شعر بأن الرعية « أنست بحسن سياسته وجميل سيرته » (٣) ، تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجي فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان . وكان لكشف هذه المؤامرة صدى في موقف الأمراء المناصرين لبرقوق ، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم ، واجتمعوا للتفاوض في إسقاط « سلطنة الصغار » وإقامة برقوق سلطاناً على البلاد (٤) . وتوالت الاجتماعات التي أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد في وقت تولى أمرها سلطان صغير . كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدي إلى طمع الأعداء في البلاد (٥) . ثم عرض الأمراء الجراكسة: إيتمش البجاسي وجركس الخليلي وقردم الحسني على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه على السواء (٦) ، ولكن برقوقاً أبدى رغبته في أن تأتي هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء في مصر وسورية ، ولهذا ركب الأمير سودون الفخرى حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استرضاهم وما زال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق في أمر سلطنته « وهونوا عليه الأمر » وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء في سورية . وإذ زالت كل العقبات التي اعترضت الأمير برقوق، وآخر هاموت اثنين من كبار الأمراء اليلبغاوية أقدم من

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥ .

(٣) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٤ .

(٤) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤ .

برقوق هجرة وإمارة ، وهما : الأمير أقطر عبد الغنى والأمير ايدمر الشمسى ، قبل
برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء فى أمر سلطنته (١) .

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله
فى ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢) ، إلى الاجتماع به مع القضاة الأربعة
وسائر الأمراء فى باب السلسلة . وقام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر فى
وسط المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت
وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة
والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع
فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » (٢) . وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى
المجلس « أن الأمور مضطربة ، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد
الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام » (٣) * ولم يكن هناك بطبيعة الحال
من يجزئ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان
الصالح حاجى بعد أن حكم سنة وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق (٤) ؛
لما علموا فيه من « حسن سيرته وإحكام سريره ، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته ،
وحسن تدبيره فى سياسته ، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته ، ولما فيه من المصلحة
الثامة للخاصة والعامة » (٥) . وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى
وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه إلى أهله بالدور السلطانية ، ثم أخذاه منه النجاء (٦)
وأحضراهما إلى السلطان برقوق ، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان
إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه « بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم
والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ماتحت ولايته شرقاً وغرباً ،
براً وبحراً . » (٧)

جلس برقوق على تخت السلطنة فى وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر

-
- (١) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤-٢١٥ .
 - (٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٠٥ .
 - (٣) ابن أبى السرور : الروضة الذهبية ورقة ٤٠ .
 - (٤) العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .
 - (٥) العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩ .
 - (٦) النجاء هى شارة السلطنة ، وهى كلمة فارسية معربة ومعناها السيف الصغير أو السكين
المنحنية . انظر ابن تغرى بردى النجوم ج ١٠ حاشيه ٢ ص ٢٣١ .
 - (٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ ب .

رمضان سنة ٧٨٤ هـ وأفيضت عليه خلعة السلطنة وهي خلعة سوداء ، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني أن يلقب « بالملك الظاهر » فإنه تسلطن وقت « الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافياً » (١)

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التي رسمها لهذا الغرض . واعترف به في الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم في الوقت الذي كان فيه برقوق مملوكاً عادياً في صفوف الجيش (٢) .

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة ، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطاني ، والقبّة والطير على رأسه ، وطلع من باب السر ، وعند ركوبه « بأبهة السلطنة » أمطرت السماء فتفاعل الناس بيمين السلطنة الجديدة . ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق . وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل ، كما زينت القاهرة وأنحاء البلاد سبعة أيام ، ونودي بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق (٣) وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله (٤) . وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام ، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلطن بعده (٥) .

والواقع أن نجاح السلطان برقوق في الترقى من صفوف الجندية إلى السلطنة مرجعه حكمته ودهاؤه ، وإحكام خطته التي رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم ، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة . ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصري ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك ، ولذا حرص

(١) نفس المرجع والجزء والصفة .

(٢) Muir : The Mamluk Dynasty p. 106

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ ب .

(٤) بما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار :

ظهور يوم الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتر بالقاهر

وبشر قد تم وكل امرئ منشرح الباطن بالظاهر

وبما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدي :

تولى الملك برقوق المفدى بسعد الجدد والأقدار حتم

نهار الأربعاء بعد الظهر وللتربيع في الأفلاك حكم

راجع ابن تغرى بردى النجوم ج ١١ ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ .

في بداية سلطنته على إرضاء الأمراء اليلبغاوية من الترك والجر كس على السواء ، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلي الجركسي مشيراً للدولة ، وفي الوقت نفسه ، جعل الأمير سودون الفخري التركي نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن يلغا الناصري وأقره في قيادة حلب بعد أن حضر يلغا وقبل الأرض بين يديه (١) . على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات في يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعاً إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم في شيء إلا بعد مراجعته .

وهكذا أيضاً أنهى برقوق سلطنة الترك في مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاون ، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة . وأقام برقوق دولة جديدة هي الدولة المملوكية الثانية التي أطلق عليها المؤرخون المعاصرون «دولة الجراكسة» (٢) ، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم ، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف . وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارات الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور ، وأخذ يوجه سياسة الدولة في الداخل والخارج ، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك ، ذلك النفوذ الذي أضعف السلطنة المملوكية الأولى . ومن هذه العبارات ما قاله ابن خلدون : «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم في إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها» (٣) .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١ .

(٢) راجع المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٤١ .

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ، ج ١٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٤ .

الفصل الثالث

حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق - ثورة الطنبا السلطاني
التركي نائب الابلسين ١٣٨٢ م - طمع الخليفة المتوكل سنة
١٣٨٣ م في السلطنة وسجن المتوكل - كشف مؤامرة أحمد
بن البرهان سنة ١٣٨٦ م - ثورة المماليك الترك بزعامة
منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨ م - اعلان السلطان برقوق
عداء للترك ومحاويلته قتل يلبغا الناصري - توحيد صفوف
الترك لمقاومة الجركس - اعلان الصراع بين الترك والجراكسة -
معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك
الترك سنة ١٣٨٩ م - عودة جيش برقوق منهزماً الى القاهرة -
استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩ م خلع برقوق
واعادة السلطان حاجي الى الحكم - عوامل القسام الترك على
أنفسهم - النزاع بين منطاش ويلبغا الناصري - خروج
السلطان برقوق من الترك الى دمشق في أواخر سنة ١٣٨٩ م
انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق - عودة السلطان
برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجي .

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تدبيرها وتنفيذها ، غير أن
الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود ، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط
المؤامرات التي دبرها المماليك الترك ضد سلطنته . ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ في
إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك ، فرقة اليلغاوية الترك
وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان . ولما كان لليلغاوية الترك فضل الموافقة على
سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمراءهم في الحكم إشراكاً شكلياً ، حتى يمكنه أن ينصرف
إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك : وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية
من إقطاعاتهم وتركهم بطالين وبرر السلطان برقوق إجراءه هذا بقوله : «إن هؤلاء .
خائنوا أستاذهم بعد أن عاشوا في نعمته مدة طويلة ، وإنه لهذا «لم يعد يأمن لهم» (١) .
وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ه أ .

الأشرفية الترك . ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التي أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق في جركسة الدولة كلها وماتبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية .

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنبغا السلطاني الأشرفي نائب أبلستين (١) . ذلك أن هذا الأمير هاجم في ذي القعدة سنة ٧٨٤ هـ (سنة ١٣٨٢ م) قلعة دارنده (٢) المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً . غير أن مماليك هؤلاء الأمراء تمكنوا من القبض على مماليك الطنبغا السلطاني وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان ؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته . ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلبغاوية في سورية بدليل أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب لم ينضم إلى الطنبغا السلطاني في حركته هذه ، بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه .

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان في نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم في الثورة على حكم الجراكسة ، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنئذ ، حتى إن الطنبغا السلطاني حين شعر بضعف مركزه لعدم موازنة نواب سوريا من اليلبغاوية الترك فرهاباً إلى بلاد التتار بعد أن أعلن رأيه صراحة في قوله . « لا أكون في دولة حاكمها جركسي » (٣) .

على أن الأشرفية جربوا حظهم مرة أخرى في أول رجب سنة ٧٨٥ هـ (سنة ١٣٨٣ م) ؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله ، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قرط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلائي أمير جندارومعهما نحو ثمانمائة فارس من الترك (٤) باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان ، وإعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد (٥) . وحين كشفت هذه المؤامرة وجيء بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق

(١) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية - راجع ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٦ .

(٢) قلعة دارنده كانت من بلاد الثغور والمواصم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طلبخانة - انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢٨ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٤) العمري : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨ .

(٥) المسقلائي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠٠-٢٠١ .

هددهم بالويل والثبور ، حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم « هؤلاء ظالمون » وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً منى في الباطن ، ولم أقلد برقوقاً إلا غصباً » (١) . وظهر من اعترافاتهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم (٢) . وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت ، ووافقه البعض على هذا الحكم ، على حين اختلف القضاة فيما بينهم في أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين ؛ وهذا تخلص عجيب في بابه من ورطة هذا اليوم (٣) . وإزاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعيين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقيه بـ « الواثق بالله » وبالحكم على قرط بن عمر بالموت (٤) .

على أن هذه المؤامرة التي وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيري الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم ، كما نفي عدداً آخر إلى سورية بطالين .

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجسوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية اليلبغاوية كذلك ، وبما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب سلك مسلكاً شائناً في سنة ٧٨٧ هـ (سنة ١٣٨٥ م) من سولي بن دلغادر التركماني عدو السلطنة المملوكية الثانية ، ذلك أن سولي بن دلغادر حضر إلى حلب طائعاً ، فأنزله يلبغا الناصري عنده ، وكاتب السلطان برقوق في أمره ، فأرسل برقوق إلى يلبغا بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً . غير أن يلبغا الناصري وجد في القضاء على سولي بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالي توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك — فتظاهر يلبغا بطاعة السلطان وقيد سولي وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه . وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على براءته بخروجه بالعسكر في طلب سولي ، ولكنه سار يوماً في غير الطريق الذي سار فيه سولي بن دلغادر ، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه (٦) . وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبغا ، ونحشى تكرار مؤامراته بعد أن ظهرت نياته واضحة ،

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقة ٧ أ .

(٢) المرجع نفسه، الجزء والصفحة .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٠ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٨٦ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩ .

(٦) العسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

فأرسل بعزله عن نيابة حلب ، وعين مكانه الأمير سودون المظفرى صاحب حلب الذى طالما دس على يلبغا الناصرى عند السلطان . وحين جاء يلبغا الناصرى إلى القاهرة فى رجب سنة ٧٨٧ هـ عنف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية (١) .

وماكاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصرى وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته فى السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء فى دمشق . وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٨٨ هـ (سنة ١٣٨٦ م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدى ليقفوا بين يدى السلطان برقوق . وحين واجههم السلطان بتهمة « السعى فى قصص الملكة والدعاء لإمام قرشى » (٢) تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان فى جرأة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه « غير أهل للقيام بأمر المسلمين وعدد له بأمور عليه ، منها أخذ المكوس وغير ذلك ، وأنه لا يقوم بأمر المسلمين إلا لإمام قرشى » (٣) . وكانت هذه الحركة غريبة فى بابها وقتذاك ، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن يكون للترك ضلع فى هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبوه حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك ؛ غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمائل (٤) . واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء كانوا من فريق الأشرفية أو اليلبغاوية ، فتتبعهم بالقتل والنفي كما ترك عدداً كبيراً منهم يطالبين . وزيادة فى الحيلة أمر برقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراء القصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتثل الأمراء لهذا الأمر (٥) .

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرفية عز الأمر على تمر بغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية . (٦) وأخذ فى جمع الترك الذين نفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان . وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ، ص ٤٧٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٧٠ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦ .

(٥) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٣ .

(٦) أصله من ممالك السلطان الأشرف شعبان الترك أبى عليه الظاهر برقوق وعينه فى نيابة ملطية بشفاعة قجاس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذى جلبه بالغ فى الإحسان إليه - راجع العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٦٤ .

لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته . ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء ، وأرسل دوا داره ملكتمر بعشرة آلاف دينار لينفقها في أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش (١) . وأثبتت المعلومات التي جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن محاربته (٢) . وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن في وسعه إطلاق سراح يلبغا الناصرى وإعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى (٣) وذلك في ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلبغاوية ويثيرهم على الأشرفية وبذا يستفيد من الانقسام في صفوف الترك .

بيد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضي ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه في ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرفية الترك (٤) . وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يلبغا الناصرى وتوقع أن ينضم يلبغا إلى بنى جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة .

على أن يلبغا الناصرى لم يجرؤ على الانضمام علناً لمنطاش ، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن انضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس ، وقرا محمد التركمانى ، ونائب البيرة . أما يلبغا الناصرى ، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه . ولكنه بدلاً من أن يتجه إلى منطاش في ملطية اتجه أولاً إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها (٥) . ويبدو أن صاحب سيواس خشى أن يقع بين هجومين : أحدهما هجوم تيمورلنك الذى أخذ يزحف غرباً ، والثانى هجوم جيوش السلطان ، فبادر إلى إعلان الطاعة (٦) واكتفى يلبغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان في وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها (٧) . والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يلبغا الناصرى سبب للسلطان برقوق متاعب كثيرة ، إذ أنه لم يشترك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) العسقلانى : إنباء النمر ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٨٠ .

(٤) راجع العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٣ .

(٧) العيى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨ .

المماليك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوحد صفوف المماليك الترك .

وفي ربيع الآخر سنة ٧٩٠ هـ (سنة ١٣٨٨ م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع في خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبغا الجوباني نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إخلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكثار الأمير الطنبغا الجوباني من شراء المماليك (١) . وفسر الترك مسلك برقوق من الجوباني بأنه حمل كل معاني الغدر . ذلك أنه حين حضر الطنبغا الجوباني إلى مصر ليدلل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية وأقر منافسه طرنطاي في نيابة دمشق (٢) .

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم ، وخاصة مثيري الفتن من المماليك البطالين . وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه (٣) . وتكتل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة (٤) ، أما يلبغا الناصري فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وأثر الحياد واحتجب في بيته خشية اصطدامه باينال اليوسفي بالحركسي . غير أنه في الوقت نفسه اتصل بمنطاش سرّاً وشجعه على الاحتماء بحماه ، حيث وجد في أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية (٥) .

أثارت هذه الأخبار السلطان برقوق ، ولكنه كظم غيظه ريثما تتم استعداداته للانتقام من يلبغا الناصري ، حيث إنه لم يكن يستهان بقوة يلبغا الناصري بعد أن ازداد نفوذه في حلب بسبب تمكنه من أسر حوالي ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم (٦) .

وحتى تتم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء ، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك في سورية أخذ يتودد إلى يلبغا الناصري وبعث إليه هدية من جملتها « خيول عربية وكنائش وأطرزة

(١) أصل الطنبغا الجوباني من اليلبغاوية - وثق به برقوق وجعله أمير مجلس وممناه صاحب الشورى في الدولة - راجع ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٧ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٣) راجع ابن دقماق : الجوهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصورة) .

(٤) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٥) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .

(٦) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤٩٠ .

زركش ، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور في أمر منطاش (١) . غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته ، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل ، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله في مقاومة حركتي التركمان ومنطاش ، وخوفه على حلب منهما (٢) ، وبعث يلبغا الناصري برده على يد رسول من عنده . ولكن رغبته في الانتقام من السلطان برقوق دفعته إلى الكتابة سرّاً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق ، كما طلب من رسوله أن يكشف له في أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره السلطان له ولاخوانه الترك من المكائد (٣) .

وبرغم أن السلطان برقوق أظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصري إلا أن خوفه من مكائد يلبغا الناصري وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته ، الذين كسب ودهم بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع (٤) ؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكتمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها ؛ ظاهراً مطالبة يلبغا الناصري بصلح سودون المظفري بحضور ملكتمر والأمراء والقضاة والأعيان وأن يلبس خلعى السلطان بعد الصلح . ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التي دبرها السلطان مع خاصكيته ، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصري وبين سودون المظفري ، لما بينهما من عداوة مستحكم . فكتب السلطان إلى سودون المظفري وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصري وقتله في أثناء اجتماع الصلح (٥) وتعهد السلطان أن يؤخر رسول الناصري عنده حتى يسبقه دوداره ملكتمر إلى حلب ، بيد أن يقظة رسول الناصري مكنته من أن يلزم بتفاصيل مؤامرة السلطان . وحين أزمع رسول يلبغا السفر جد في السير إلى حلب حتى سبق ملكتمر ، وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة ، فاحتاط الناصري للأمر (٦) .

(١) راجع العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) ابن خلدون : المبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٩ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ - روى ابن الفرات أنه رأى بخط

بعض المؤرخين أن الأمير ملكتمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصري مصاهرة ، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أخبر الشيخ حسن بما أبطنه -

راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م خرج الأمير يلبغا الناصري واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان ، وبعد أن أخذ منه هدايا لسلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب (١) ، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان . وبعد أن قرىء الكتاب أرسل الناصري إلى سودون المظفري يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلكأ بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصري . وإزاء إلحاح الناصري عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملبسه خشية غدر الناصري ، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشي أمير آخور الناصري ، وتقدم قازان ولمس كتف سودون ، فوجد السلاح تحت ملبسه ، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله : « يا أمير ! الذي يجي للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب ؟ » (٢) فسبه سودون حتى سل قازان سيفه وضربه . ثم أخذت سودون المظفري السيوف من كل جانب من ممالك الناصري الذين رتبهم لهذا الأمر . وتبع هذا معركة بين ممالك سودون وممالك الناصري انتهت بهزيمة ممالك سودون (٣) .

وهكذا كشف يلبغا الناصري عن موقف السلطان برقوق ونواياه لإزائه وإزاء الممالك الترك . وبدأ يلبغا الناصري منذئذ يواجه السلطان علناً ، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق (٤) . كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها (٥) . ودخل في طاعته أهل حلب وأمرائها وعسكرها وبعض التركمان والعرب (٦) ، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك ، فكتب إلى منطاش يدعوه إلى محالفته ، وصادفت هذه الدعوى هوى في نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل في طاعته (٧) . وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد الممالك الترك في فرقة الأشرفية مع الممالك الترك اليلبغاوية وأندرت بالتالي بسوء مصير سلطنة برقوق :

ولم يكن في وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد

(١) دار السعادة هي دار الحكومة التي يقيم فيها الوالي والحاكم ومنها يدير شئون الحكم .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٥٠١ .

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٥ .

(٥) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٥٣ .

(٦) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٧) العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك ، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسني الجركسي أتاك دمشق تقليداً بناية حلب ، وأمره بالقبض على الناصري (١) . غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة ، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقاله من قبل ولم يسارع إلى تنفيذ أوامره .

وفي التاسع من صفر سنة ٧٩١ هـ (سنة ١٣٨٩ م) تخرج موقف برقوق، فاستدعى قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمرائها وشاورهم في أمر عصيان الناصري ، وعرض عليهم أن يخرج لقتاله ، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال الناصري من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم (٢) . وتردد السلطان كثيراً في قبول ما أشار به الأمراء . ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان لم يرغب في أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى في القاهرة بعدد قليل ، ولهذا تودد إلى الأمراء كثيراً، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته (٣) . وظل الموقف مائعاً حتى بدا السلطان برقوق في مركز لا يحسد عليه حين جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله ، والأمير نزلار العمرى الناصري ، والأمير دمرداش اليوسني ، والأمير كتبغا الخاصكي الأشرفي اجتمعوا بعدد كبير من المماليك الأشرفية الترك في سورية (٤) وهاجموا طرابلس ، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير استدمر الحمدي ، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمراءها الموالين للسلطان برقوق (٥) . وفضلاً عن هذا أعلن يلبغا الناصري في حلب نبأ خلع السلطان برقوق وسلطنة الخليفة المتوكل على الله ، وبعث يلبغا الناصري بهذا الإعلان إلى نواب القلاع الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأييدهم له (٦) .

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط في سياسته ، فلم تكد تمضي عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة في ٥ من ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ (٧) حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانته وأصحابه

-
- (١) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦ .
 - (٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ
 - (٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٠ .
 - (٤) المسقلاقي : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ .
 - (٥) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٢٥٩ .
 - (٦) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦ .
 - (٧) الهيثمي : إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ ب .

من الدخول إليه . ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ أنه خشى أن يرسل الناصري إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته (١) . ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خلصائه في خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهز الناصري فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان (٢) ، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى . ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف (٣) ، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته (٤) .

وفي العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ يونيو سنة ١٣٨٩ م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية — فيما عدا قلعة دمشق وبعلبك والكرك — في طاعة يلبغا الناصري . وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولى بن دلغادر التركمانى ونعير بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركاي يلبغا الناصري ومنطاش في الدعوة إلى نصر الخليفة (٥) ، ولم يجد السلطان برقوق بداً من تجريد عدد من أمرائه ، ساروا في خمسمائة من مماليكه لقتال الناصري (٦) . غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان في سورية ؛ ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور في العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة . وفي ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ (٧) رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسى ، وأغدق السلطان برقوق عليهم الكثير من النفقات . وبرغم أن العساكر خرجت في تجهل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لدهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس .

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلي أمير آنحور السلطان على نائبها الأمير ابغا الصفوى التركى وسجنه بالكرك ، وأقر في نيابة

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ أ .

(٢) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ ب .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٥) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٦ - آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧١ .

غزة الأمير حسام الدين بن باكيش (١) . ثم تشجع جاركس وتقدم شمالاً ، وهناك أعلن قرا محمد التركمانى رغبته فى الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه فى محاربة الناصرى . وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب فى تدخل التركمان أو صاحب ماردين فى هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذهم فى سورية ، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والثناء ، وأنه « ادخرهم لما هو أهم من ذلك » (٢) . ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فتلقاهم نائبها حسام الدين طرنتاى ، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم فى نزهة عسكرية فأقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا باللهو والمجون فيها حتى « سثمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقعة فيهم وفى مرسلهم » (٣) .

وانتهز يلبغا الناصرى ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجونهم فى دمشق وتقدما بالمماليك الترك فى ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليو سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق . فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة (٤) ، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه . ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع ، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك ، بيد أن يلبغا الناصرى عاد فجأة وانقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلبغا الزينى الأعور من قتل الأمير جاركس الخليلي أهم قائد فى جيش السلطان برقوق (٥) . ولاشك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفرادهم نحو الخمسمائة ، كان الترك يعدون بالآلاف فضلاً عن انضم إليهم من التركمان والعرب (٦) . واستطاع يلبغا الناصرى بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش البجاسى وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة فى قلعة دمشق (٧) .

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية ، أولاهما

-
- (١) المسقلاى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٧ .
 - (٢) ابن قاضى شهبه : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٣٧ .
 - (٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧١ .
 - (٤) برزه : قرية من غوطة دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٤ .
 - (٥) ابن قاضى شهبه : ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ٣٧ .
 - (٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٥ .
 - (٧) السيوطى : تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧ أ .

أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق ، وثانيتها اضطراب الأحوال الداخلية في مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطاني على هذا النحو ، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق في وقت انتشر فيه الطاعون (١) . وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمناقشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر في التجريدة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى ، واتفقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لاتقل عن ألف وأربعمائة مملوك (٢) .

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجريدة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أثابك دمشق ، وأن اينال اليوسفى اضطرب لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى . وتقدم الترك ومعهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة (٣) . ولم تكن لدى السلطان في هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويخلفهم على الموالاتة وإسداء النصيح ، كما أظهر احترامه الزائد للخليفة ، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التى قطعت من قبل (٤) .

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان في معركة دمشق - التى عرفت بمعركة الخمسمائة - (٥) كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جاركس الخليلي ، ويونس الدوادار (٦) ؛ وتخرج مركزه وخشي انتقام العامة ؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها ، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب في شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخونى النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى في الناس « أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وإنا قد سألنا العدو الباغى في الصلح فأبى وقد قوى أمره ، فأغلقوا دوركم ، وأقيموا الدروب على الحارات ، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم (٧) » . غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة في اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق ، لأن السلطان عاد فعاد

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠ أ .

(٤) نفس المرجع ورقة ٢٠ ب ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٠٤ .

(٥) عرفت بمعركة الخمسمائة لأن السلطان قاتل فيها بخمسمائة من العساكر - راجع

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ .

(٦) انظر السيوطى : تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٧ أ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩-٢٧٠ .

عن قراره وألزم مباشرة جهات المكس بمطالبة الباعة بمكس ما يبيع (١) ، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات (٢) . والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال ، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا في الهروب من القاهرة والانضمام بجيش الناصري والعمل على التخلص من حكم برقوق . أما من بقي من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آتئذ سوى « عمل الدروب وجمع الأوقات والاستعداد للقتال والحصار » (٣) في وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يثسوا من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم .

ولزاء هذا الشعور الذي لمسهُ السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين في كفاحه مع الترك بعرب هواره وعرب الوجه البحري (٤) ، واعتمد على مماليكه في حفر خندق حول القلعة ، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل ، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأوقات والمجانيق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار ، ثم أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار . وبعد أن تمت استعداداته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة (٥) .

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق في هذه الآونة إذ تبع هذه الاستعدادات سوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان ، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فنودي « بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر » (٦) . أما باقي آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بثمن مرتفع جداً (٧) . وبرغم ما أنفقه السلطان برقوق على مماليكه من المال والحيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به ، حتى أخذ يحرص مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء ، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبي ، كما أعطى الأمير اقبغا المارديني حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع

-
- (١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥١٢ .
 - (٢) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٧ .
 - (٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٠ .
 - (٤) المسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٧٧ .
 - (٥) ابن قاضى شهبه : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩ .
 - (٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٣ .
 - (٧) نفس المرجع والجزء والصفحة .

على قول ابن تغرى بردى : « مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب ، ثم بطل الحكم في القاهرة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار » (١) ، والحلاصة أن الأحوال ساءت في داخل القاهرة ولم ينقل برقوق من ثورة العامة عليه سوى انتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم (٢) .

أما يلبغا الناصري فإنه سار من غزة إلى قطية (٣) في ٢٨ من جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ (أغسطس سنة ١٣٨٩ م) وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصري بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه (٤) . وفي قطية وجد الناصري بعض جواسيس برقوق فعاقبهم (٥) ، ثم ما كاد خبر وصول الناصري إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه ، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنثد من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصري على موقف السلطان برقوق السيئ مما شجع الناصري ودفعه إلى التقدم بسرعة نحو القاهرة . وحين وصل يلبغا الصالحية ، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العائد كل معونة سواء من المال أو الرجال ، وسار يلبغا الناصري بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة (٦) .

أما السلطان برقوق ، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة ، أمر فدقت الكتوسات الحربية ، ثم ركب مع الخليفة في مقدمة العساكر ، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه بيكائه حتى لمهم بكوا إشفاقاً لحاله (٧) .

وعندما أشرف الناصري على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة ، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة ؛ بسبب فرار

-
- (١) نفس المرجع والجزء والصفحة .
 - (٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .
 - (٣) قطية قرية في الطريق بين مصر والشام قرب القرما وكان بها مكان أخذ المكس من الوافدين على مصر . راجع رمزي : القاموس الجغرافي ص ٤٢ .
 - (٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .
 - (٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ .
 - (٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٧ .
 - (٧) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٥١٣ . (مخطوطة)

واليها حسام الدين بن الكوراني واختفائه خوفاً من انتقام الزعر ، الذين انتشروا ينهاون في أنحاء المدينة .

والواقع ، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجيء عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة ، حتى إن من بقي معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يابغا الناصري برغم ما أنفقه السلطان عليهم (١) . ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذي دفع السلطان إلى إغلاقه ، وبذا أصبح محصوراً في داخل القاهرة . وزاد في ضعف مركز السلطان برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بخزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم ، وكسروا أبواب الحبس ، وخرجوا ليعيشوا في القاهرة فساداً . ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق في منع العامة من التوجه إلى الناصري بل إن العامة رجموهم بالحجارة ، واضطرو الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمي العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلي مرير (٢) .

وفي يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م أقبلت طليعة الناصري « كأنها الموت الأحمر » (٣) مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه ، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان في جماعة كبيرة ، وأخذ في قتالهم وعاونته المماليك الذين في القلعة بالهجوم على الترك بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع وهم يكرون ويفرون . والواقع أن باقي الجراكسة ثبتوا ثباتاً راسخاً ، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصري وخطورة موقفهم بدءوا في التسلل للانضمام إليه (٤) ، حتى إن السلطان برقوق يئس وعرض على من بقي معه من الأمراء أن يسلم نفسه (٥) ، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم ولا يموتون إلا على ظهور خيولهم (٦) ، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهري أحد كبار الأمراء الجراكسة المتحمسين ، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته ، أرسل النجاء إلى الناصري وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته ، فكتب له الناصري أماناً .

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ أ .

(٢) نفس المرجع ورقة ٢١ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٣ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢١ ب .

(٤) المقرئى . السلوك ج ٣ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٥) السلاوى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ ب .

(٦) الميمنى : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣ .

والظاهر أن الناصري حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين ، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصري من قبل مع كثرة أخطائه ، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصري للانتقام الجراكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصري حاملي الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمراً (١) .

وهكذا اختفى السلطان برقوق ، ودخل الناصري وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله في قبة النصر (٢) ، وأخذوا في الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم . على أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعاني أشد أنواع الاضطراب ؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركمان من أصحاب يلبغا الناصري في الهجوم على بيوت الأمراء وحواصلهم ونهبها وتخريبها . ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة - مع ما بذلوه في المقاومة والدفاع - من النهب والسلب . ونهب الترك والتركمان الاضطراب السلطاني ؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل : إنهم نهبوا ألفين ومائتي إردب شعيرا ، ونهبوا من الدراهم مائتي ألف درهم (٣) ، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم . وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصري عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والى البهنسا واليا على القاهرة (٤) ، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح ، ودخل جامع الحاكم ، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصري ، وطلب منهم أن يمتنعوا عن النهب ، غير أن نداه لم يكن مجديا إذ استمر الترك في النهب وقتال العامة حتى اضطر الناصري إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبي بكر أمير حاجب ، وتنكزيغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر ، فأمر فنودي بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئا فلا يلو من إلا نفسه ، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال» (٥) .

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذي حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة في وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة . ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصري ومنطاش الأشرفي إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاون والعمل على

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٢٨٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ أ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

إعادة الترك إلى مراكزهم التي أقصاهم عنها برقوق ، فاجتمع الناصري بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة ، ونصب للخليفة خيمة عظيمة ، وللقضاة أخرى ، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق . ورغم أنهم أجمعوا على سلطنة الناصري باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك ، فإن الناصري امتنع عن ذلك أشد الامتناع ، ذلك أنه أدرك أن سلطته ستواجه حملات المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة . ولهذا استقر الرأي على إعادة الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة . فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك (١) في يوم ١٠ من جمادى الآخر سنة ٧٩١ هـ .

وبهذا خلع السلطان الظاهر برقوق الذي استطاع أن يرتقى من صفوف الجند إلى وظيفة أمير آخور دفعة واحدة ، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها ، وظل يشغلها حوالي خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاون وأكثر من شراء المماليك من العنصر الجركسي حتى بلغ ما اشتراه في هذه الفترة منهم نحو ألفي مملوك (٢) ، قدمهم على الترك والروم (٣) ، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاون .

وامتاز برقوق في سلطته الأولى التي استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالخزم والهيبة وحبه لأهل الخير والعلم ، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام إليه ، على حين لم يعرف أحداً قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه ، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده ، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية (٤) بين القصرين . غير أنه يؤخذ على سياسته في هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية في وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها ، حتى أصبح لا يصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال . ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» (٥) مما عجل بنهاية حكمه .

دعى أمير حاجي في سلطته الثانية بالسلطان المنصور وتقدم الأمراء على عاداتهم

(١) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٩٨ .

(٤) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٦ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٩١ .

وقبلوا الأرض بين يديه ، ودقت الكوسات وهو في طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه (١) . ومن الطبيعي ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصري منصب الأتابكية ، وسكن الاصطبل السلطاني ، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس .

وبدأ الأمير يلبغا الناصري في تنظيم الأمور الداخلية ، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان . وعين من يطمئن إليه من الأمراء في خدمته (٢) ، وكتب مرسوما على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها ، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس ، ثم عين الناصري من الترك نوابا في الشام ، وأمرهم بالتوجه فوراً إلى نياباتهم (٣) . غير أن الأمير يلبغا الناصري لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة ، فأخذ في تتبعهم وأمر بأن ينادى في القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على إقطاعه ومن اختنى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان» (٤) ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم ، أو سجنهم ، أو توزيعهم على أمراء سوريا (٥) .

غير أن الأيام القليلة التي حكمها الناصري أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره ، وحملت سياسة الناصري في ثناياها العوامل التي عجلت بحكم الترك ، وأول هذه العوامل أن الناصري أبقى على عدد من الجراكسة الذين اطمأن إليهم ، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص ، وثانيهما أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم ، ذلك أن الأشرفية اختلفوا مع اليلبغاوية وقامت بينهم الشحناء بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التي انتقلت إليهم نتيجة نفي عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم (٦) ، ثم إن حالة العنف والتهديد التي دأب عليها الناصري مع العامة مع عجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يجرؤ أحد على منعهم ، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصري ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التي أبطلها الظاهر برقوق ، أدركنا

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٣ أ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٥ .

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٢٠ .

(٥) راجع العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٣٢٦ .

سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه» (١) .
 وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصري أنه عاد يخشى أن يؤدي اختفاء السلطان
 برقوق إلى ثورة داخلية ، ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه ، وخصص مكافأة
 لمن يعثر عليه ، وهدد من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك — كان والى القاهرة
 السابق قد عاقبها — أنه في بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا
 الجوباني لاعتقاله . والواقع أن شخصية برقوق كانت جديرة باحترام أعدائه حتى في
 هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوباني أراد تقبيل يده
 فاستنكر الطنبغا الجوباني هذا العمل ومنعه (٢) ، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه
 وعم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبية في وسط النهار ، والواقع أيضا أن
 سياسة الناصري غيرت شعور الناس سريعا نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصري ،
 ومالوا إلى برقوق ، وبدأ ندمهم على زوال حكمه واضحا ، فأخذوا ييكون ويدعون له
 بالنصر على طول الطريق ، حتى صعد السلطان إلى الناصري في الاصطبل ، فأمر الناصري
 باعتقاله في قاعة الفضة بالقلعة ، وهناك صفد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام
 والشراب (٣) .

ثم عقد الناصري في ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩ م)
 جلسة للمشاورة في شأن السلطان المعزول فانقسم الأمراء حياله فريقين ، نادى الفريق
 الأول بقتله ، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش (٤) ، على حين نادى الفريق الثاني
 بحبسه ، وصاحب هذه الفكرة هو الناصري الذي أخذ بها فيما يبدو لعاملين ؛ أولهما خوفه
 من ثورة مماليك برقوق الذين أبى عليهم وضمهم إليه ، وثانيهما أن بقاء برقوق في
 الحبس يجعله شجا في حلق منطاش إذا فكر منطاش في الثورة على يلبغا (٥) . ولهذا
 أرسله الناصري إلى الكرك في ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١ هـ — سنة ١٣٨٩ م (٦) بعد أن
 عين الأمير حسن الكجكئي نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصري بالعناية بالسلطان برقوق
 والمحافظة عليه ، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان
 برقوق (٧) .

-
- (١) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٣ .
 (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٧ .
 (٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٤ أ .
 (٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١١ .
 (٥) Muir : The Mamluk Dynasty p. 107
 (٦) العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .
 (٧) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٥٣٧ .

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوباني وثلاثة من صغار مماليكه . وأنزل حسن الكجكني السلطان برقوق بقاعة النحاس في قلعة الكرك ، وجعل في خدمته ابنة أستاذه يلبغا العمرى الكبير ، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المعزول عن نيابة الكرك « فصار تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملونة » (١).

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن الجراكسة ، وبالتالي يمكنه من إعادة نفوذ الترك . فأقدم على خطوة خبيثة إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقى منهم بمصر بسفك دمه (٢) . وأدت هذه الحركة إلى الخط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولا سيما أن يلبغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا في خدمة السلطان حاجي ، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة (٣) .

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن في مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتيت الجراكسة في سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش ، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفاه إلى مماليكه في سوريا لمعاونته على إعادة سلطته . وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعيبتهم (٤) .

وثمة عامل هام — يتعلق بسياسة الناصرى — أدى إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته في القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى أقام في جامع السلطان حسن (٥) ، كما رفع يلبغا الناصرى شأن أمراءه دون غيرهم حين وزع المثالات (٦) عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة

(١) السلاوى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٣٨ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٥ أ ، ب .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٢٩ .

(٥) Ency. OF Islam, Art Barkuk.

(٦) المثالات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندي أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقيالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت لـ راجع المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٨٧ .

وعشرين مقصورة عليهم ، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر في المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة : بأن من ظلم من مدة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصري ليأخذ حقه (١) . وانعكس أثر هذه السياسة في نفس منطاش وفي نفوس أتباعه الذين بدءوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصري وأمرائه ، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوباني وحضوره مائتته بعد أن أفرج الناصري عن الجوباني وأصبح أمير مجلس (٢) . ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه . وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصري وبين منطاش في ١٦ من شعبان سنة ٧٩١ هـ - (سنة ١٣٨٩ م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض . وفطن الناصري إلى مكيدة منطاش فلم يتوجه لعيادته ، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوباني . ولكن منطاش بدا غيبا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوباني وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف .

وهكذا بدا كأنما الأحوال تخدم السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك ، إذ ركب منطاش في أصحابه ومن انضم إليه من ممالك برقوق البحر اكسة الدين نعموا على الناصري ، لأنه لم يف بوعده لهم بل إنه شرد إخوانهم (٣) . واتجه منطاش في ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١ هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩ م إلى باب السلسلة بعد أن نهب ما في الاصطبل من الخيول . غير أنه تعذر عليه اقتحام الباب ومباغثة الناصري بسبب إغلاق ممالك الناصري الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة ، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته في مدرسة السلطان حسن (٤) . وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المثلثتين ومن حول القبة . والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصري بسبب انضمام العامة إليه ، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصري وأصحابه عليهم (٥) .

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكوراني الذي أعيد والياً على القاهرة في القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية . وبرغم ندائه في الناس بنهب ممالك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم ، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٧ .

(٣) ابن دقاق : الجوهر الشين (النسخة الخطية) ج ٢ ورقة ١٣ أ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٢ .

(٥) السلاى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥ أ .

جانب الناصري . وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف ، إذ أرسل منطاش جماعة قاتلوا من حضر لهذا العمل (١) . وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكوراني الذى عينه منطاش والياً على القاهرة وألزمه بجمع الشباب ، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً ، ثم نادى فى القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر ، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس (٢) .

وعند ما رأى الناصري ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يسأله فى الصلح حتى تخمد الفتنة (٣) . غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة ، كما أكد طاعته للسلطان حاجي ، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصري . وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصري من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ ، ثم ذكر أن الناصري حلف له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر ، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه ، وقرب خشداشيته اليلغاوية وأبعده وخشداشيته الأشرفية ، وتمادى فى إهماله لشأنه والخط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى هو على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه (٤) ، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم ، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال ، وأعطى الناصري نفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات ، ولمنطاش أصغرها وأضعفها . ثم جعل منطاش تبعة ذلك كله فى عنق السلطان الصغير (٥) .

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصري والرضوخ للصلح ، كأن مصلحة البلاد لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء المتنازعين . وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة . ولعبت الخيانة دورها بين الترك اليلغاوية ؛ إذ خرج على الناصري عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من المماليك الجراكسة الذين خدعهم ، وانضموا إلى منطاش مما أندر بهزيمة الناصري . وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش ، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله : « أنا واحد منكم » (٦) ، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى

-
- (١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٦ أ .
 - (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٤ .
 - (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٣٥ .
 - (٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٤٨ .
 - (٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ج ورقة ٢٦ أ .
 - (٦) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٤٠ .

جمع الشباب والحجارة من على الأرض وحملها إلى منطاش . وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسي أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته ، فاعتذر ابن الطرابلسي له حتى عفا عنه ، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر آلات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهرية وصار يرمى على حيث جلس الناصري ، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة ، ففر السلطان حاجي من الخيمة إلى مكان آخر ؛ وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصري إلى منطاش (١) .

وهكذا فشل الناصري في سياسته ، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك ، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك واضحاً نتيجة للمطامع الشخصية ، وبدا جانب الناصري ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطاني ، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصري وخزائنه (٢) . ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجي وأعلمه أنه في طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من مماليك أبيه الأشرف شعبان . وخذع السلطان بهذا القول وأعان ابتهاجه لهذه النتيجة ، خاصة بسبب تضيق أتباع يلبغا عليه (٣) ، ثم أقر السلطان حاجي الأمير منطاش أتابكا للعساكر في رمضان سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م .

وتتبع منطاش يلبغا الناصري حتى تمكن من القبض عليه بسرياقوس ثم أمر به فقيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه .

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبغا الناصري أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق في الوقت المناسب ، وبهذا أصبح يواجه عدوين في وقت واحد ، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة .

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد حظاً من يلبغا الناصري ؛ ذلك أنه أنفق جهده في تتبع أصحاب الناصري والقبض عليهم ، وتخريض أتباعه على الانتقام منهم ثم إنه لم يجد أنه تزوج من أخت السلطان المنصور حاجي (٤) رغبة في تأييد مركزه ، إذ سرعان ما شعر بخروج موقفه أمام الجراكسة الذين حنث بعهدده معهم في إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصري ، وحين وزع الإقطاعات على مماليكه

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٦ أ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٨ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٠ .

(٤) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازاً قليل المثل لعظم ما فيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلفة الألوان ، وحمل جهازها على خمسمائة جمل - راجع لإنهاء الغمر ج ١ ص ٢٨٨ .

وأخذ يقرب خشد اشيته ومماليكه وأولاد الناس ، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم — بإمرة أو إقطاع ، مما أوغر صدورهم عليه (١) . وإذا أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترضاهم ، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم ، (٢) وبعد أن أخذ خيولهم قيدهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل (٣) .

وجاءت هذه الحادثة ضعفاً على إباله بالنسبة للسلطنة التركية ؛ إذ بدأ الجراكسة يتكثرون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى فى الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم .

ثم شغل منطاش فى تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق فى إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكوراني والياً على القاهرة لإجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر (٤) .

أمام هذا التكتل الجركسى أرسل منطاش يستدعى المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات (٥) . غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال فى القاهرة وبرغم وجود الخفر فى شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءاً . بل إن حوادث أخرى أُنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه ، وأهم هذه الحوادث اضطراب أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعيم ابن مهنا مع سولى بن الغادر الأمير التركمانى ونهبهما حلب ، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق ، وحرّض نواب سورية على مؤازرته فى ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلبغا الناصرى (٦) .

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك فى سورية دبر ، مقتل السلطان برقوق سراً ، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكئى نائب الكرك ، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق ، ولكن حسن الكجكئى لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش ، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٥٥٠ - ٥٥١ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٧ أ .

(٤) نفس المرجع ورقة ٢٧ ، ٢٨ ب .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٣ .

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٨٨ .

برقوق دون إذن كتابي من السلطان والخليفة . وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برقوق فإن حسن الكجكني ماطل الشهاب البريدي وأنزله في قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برقوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله ، وحلف حسن الكجكني لبرقوق بالأيمان المغلظة ألا يفعل به شيئاً (١) . وحين أيقن الشهاب البريدي بأن الكجكني يماطل في قتل برقوق ، عزم على العودة ، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضي الكرك الحميلة (٢) ، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برقوق . ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة الشهاب ، فاجئوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برقوق ، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين : « دس برجلك على عدوك » (٣) .

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكني عزم على إطلاق سراح السلطان برقوق حسب اتفاهه مع الناصري ، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصري ، ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل في تنفيذ كتاب الناصري وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة (٤) .

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة ، إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برقوق في ٩ من رمضان سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م وبدأ السلطان برقوق حكمه بتحصين الكرك (٥) ، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم في الكرك فأسرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر ، وأقاموا خارج الكرك ، كما أيده في حركته عرب بني عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذي قدم له الخيل والمال . وهكذا أصبح لبرقوق جيش في فترة وجيزة ، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق . ويبدو أن بعض أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيري قاضي الكرك ، واتفقوا على القبض على السلطان برقوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا بإجماع السفهاء ، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٧ ب .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٤١ ، الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٨ أ .

(٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين ج ٢ ورقة ١٨٨ .

القاضي فأغلق باب المدينة (١) . ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين ، أحد إخوة القاضي المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضروا لنصرته خارج الكرك (٢) . وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق . وفي شقحب إحدى قرى دمشق — تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخى طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهما من الخيل والسلاح والقماش . وبرغم أن ما استولى عليه برقوق شيء كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال ، ولذا تدرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير إينال اليوسفي البحر كسي والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتي مملوك (٣) من الجراكسة مستعدين بالسلاح ، كما وصل إليه مملوكه كمشبحا الحموي يجنده من حلب ، وقدم له خيلاً وإبلًا وكثيراً من آلات الحصار ، وهكذا أعانه كل هؤلاء في التقدم لحصار دمشق (٤) .

وعمد الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الخيل الحربية والزمن للاستعداد لقتال منطاش ، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع في قبضة العرب (٥) . فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة آلاف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش في إنفاق جهده في الانتقام من الجراكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص ، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة . وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة البحر كسية في قوص الأمير مبارك شاه ، نائب الوجه القبلي ، الذي استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلي عاونوه في تشتيت التجريدة التي أرسلها منطاش لمحاربة الجراكسة الفارين .. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره في شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التي اندلعت في الصعيد كله ، على حين ازداد عدد المماليك الجراكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق (٦) . وإذ تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق ، وجد منطاش نفسه في موقف لا يحسد عليه ، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجي . غير

(١) المسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ١٨٤ — رفع الإصر عن قضاة مصر : ص ٩٢ .

(٢) ابن تينري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١١ ص ٣٥٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩١ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت

ص ٢٤٧ .

(٥) الميمني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقه ٣٦٤ .

(٦) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٩ أ .

أن المال شكل عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لأنه كان على قول العسقلاني «نهابا وهابا» (١) . ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام ، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه . وطلب البابا متاؤس الأول سنة ١٣٧٨ - ١٤٠٨ م البطريك السابع والثمانين في عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه . وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول (٢) . ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشتى الطرق، فقرر على الممالك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعى الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه (٣) . وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للانتفاع بها في الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها (٤) .

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعى الإنشاء والممالك البحرية ، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان البلد حين قبض على عدد كبير منهم وألزمهم بدفع أموال كثيرة ليتمكن سد نفقات الحرب (٥) . والحلاصة أن البلاد تعرضت لحالة سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة عن انتصار الظاهر برقوق أو انهزامه .

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا في أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله في الشهر الحرام، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التي حرم الله قتلها ، ولذا وجب قتاله (٦) .

وعباً منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق، ثم قسم قواته ، وجعل قوة لحراسة القلعة ، وقوة لحراسة القاهرة ، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذا إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية . ولكن منطاش وقع في خطأ

(١) العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٢) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ٧٣ أ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ ب .

(٤) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٥٧٣ .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ أ .

(٦) نفس المرجع ورقة ٢٩ أ ، ب .

جسيم حين قبض على عدد كبير من ممالك يلبغا وسجنهم . كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته . وفي ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩ م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان والخليفة والقضاة وترك الأمير تكا الأشرفي نائباً للغيبة بالقاهرة في أسوأ الظروف ، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة في كل مكان، حتى في المدارس والمساجد (١) .

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشى أن يهاجمه من الخلف . وإذ اطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كمشغا الحموي نائب حلب له (٢) ، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان للملاقاة منطاش في شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفاً بأربعة آلاف فارس فقط (٣) . واعتمدت هذه الخطة على عاملين ، أولهما : تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة ، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجي ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش ، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية ، وفي الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن بيده إعلان شرعية السلطنة (٤) . ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين ، وتولى هو قيادة الميمنة . وحين التقى الفريقان في ١٤ من المحرم سنة ٧٩٢ هـ - سنة ١٣٩٠ م هزمت ميسرة الظاهر ، وانسحب كمشغا الحموي نائب حلب عائداً إلى بلاده ، وعاد حسن الكجكني إلى الكرك . غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجيباً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة (٥) حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجي والخليفة المتوكل والقضاة ، واستحوذ على ما معهم من الخزائن وال ذخيرة التي وصفتها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة (٦) . وعمد الظاهر برقوق إلى دهائه المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش ؛ إذ تلتطف بالسلطان حاجي والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره . وحين رأى عسكر منطاش

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣١ ب .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠ .

(٣) Iorga : Notes & Extraits TII. P.534

(٤) Iorga . Op. Cit. TIIp.534

(٥) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠ .

(٦) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦١٣ ، ابن تغري بردي النجوم ج ١١ ص ٣٦٧-٣٦٨ .

انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدءوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان برقوق ، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك .

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق في اليوم التالي نحو دمشق التي فتحت أبوابها لمنطاش الذي تقهقر إليها ليحتسب بها . واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا القتال طيلة الليل ، ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكثبان من الثلج على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها (١) .

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشيغا الحموي نائب حلب ، وبعد أن استولى إينال اليوسفي على قلعة صفد ، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الحرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم ينهبون البضائع من بعض السوق (٢) ، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من المعدات ما يكفي لحصار دمشق فإنه تقهقر إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف .

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام في شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاة وعرض كتاباً من السلطان حاجي ذكر فيه رغبته في التخلي عن السلطنة لعجزه عنها (٣) . وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجي بخلع نفسه من السلطنة ، وحكم بذلك القضاة ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة (٤) . وبعد هذه البيعة التي عرفت ببيعة شقحب (٥) . خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة ، ونودي بذلك في العسكر .

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل ، ولهذا رأى السلطان برقوق أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التي أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة وذلك لعدة عوامل : أولاً : أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعيم (٦) ، وثانيهما أن الأحوال الاقتصادية في سوريا ساءت حتى عدت الأقوات وغلا ثمنها حتى بيعت البقسماطة بخمسة دراهم ،

(١) السلاوي : مختصر التواريخ ورقه ٨٥ ب .

(٢) كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ، ص ٤٩٢-٤٩٣ .

(٤) ابن أبي السرور : النزعة الزهية ورقه ١٦ أ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٦) Iorga : Op. Cit. T11 ,p.535

وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة ما نهب (١) وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة ، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار مماليك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعماء مملوكه الأمير بطا الظاهري وعددهم نحو ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم مماليك يلبغا الناصري رغبة في الانتقام لأستأذهم. واتجه الثوار إلى سجون القاهرة التي أودع فيها منطاش عدداً كبيراً من الجراكسة فأخرجوا منها فيها ، ثم سار الثوار إلى بيوت الأمراء المنطاشية ونهبوها (٢) . وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطاني ، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته (٣).

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطيه أن يحفظ الطرقات ، تقدم بمن معه من المماليك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التي فشلت فيها الدعايات السيئة التي بثها ضده ابن الكوراني وإلى القاهرة ؛ إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة في مقاومة أنصار منطاش ووالى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء (٤). ويعجب ابن تغري بردي من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة في أمن من الزعر وفسادهم (٥) . ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهري بعد أن قبض على ابن الكوراني ، وصفده ب قيد من حديد ، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلي والياً على القاهرة . وأسرع الوالي الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق (٦) . وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق ، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته ، فإن بطا قضى على ما بقي من مقاومة الترك الأشرفية ، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة ، وسقطت القلعة في يده فتمكن بطا من إعادة مقررات المماليك الجراكسة من اللحم وغيره مما كان مقررراً للمماليك الترك (٧) . وبدأ بطا في إقامة الكثير من الاستحكامات حتى

-
- (١) ابن دقاق : الجواهر الشمين ج ٢ ورقة ١٨٩ .
 العيني : عقد الجمان : ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٨٥ .
 (٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٥٢ .
 (٣) المسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٣٠١ .
 (٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٢ ب .
 (٥) ابن تغري بردي : النجوم ج ١١ ص ٣٧٥ .
 (٦) المرجع السابق ورقة ٣٣ أ ، ب .
 (٧) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٥٢ .

بلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد في نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة (١) .

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر في العاشر من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م فأمر بطا الظاهري بدق البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه (٢) . فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولمن معه (٣) .

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى نودي بزينة القاهرة وبانغ سرور الناس أشده حتى تنافسوا في إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجا للقائه فرحين « مقدرين فيه عقله وثبته » (٤) . وليس من شك في أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق ويلبغا الناصري ومنطاش . وظهر واضحا أنهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الآخرين ، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظرا لسياسته الشعبية .

ويصور لنا المقرئ استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس بتصويرا حيا وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول : « في ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢ هـ - يناير سنة ١٣٩٠ م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها . والعساكر بلبوسها الحربية ، واليهود بالتوراة ، والناصري بالإنجيل ، ومعهم شموع كثيرة مشعلة (٥) ، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم مالا يحصيه إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شيء زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقوه وأحاطوا به . وقد فرشت الشقق بالحرير من التراب إلى باب السلسلة ، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها ، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور ، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً ، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال لتواضعه مع المنصور في حالة غلبته وقهره له ، وأنه معه أسير ، وعد هذا من فضائله . وصارت القبة والطير أيضاً على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما ، وقضاة القضاة بين يدي الخليفة ، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد ، وكانت العادة أن الشقق لجمهورية السلطان ، ولكنه قصد بذلك التحجب للعامة ، فإنه صاحب كيد ودهاء ، وكذلك لما نثر عليه

(١) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٦٣١ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩٤ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٣٧٨-٣٧٩ .

(٤) المسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٦٥ .

(٥) راجع كذلك يوساب : تاريخ البطارقة ورقة ٣٩ .

الذهب والفضة تنأهه العامة ، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور ، وهوراكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأنزله . فحسن هذا منه إلى الغاية . وأخذ في المبالغة في تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم ، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه (١) .

ومما ذكره المقرئى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه ، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة في إكرام السلطان حاجى ليتظاهر بمدى زهده في السلطنة ، ولتنكشف أمامه اتجاهات الناس نحو سلطنته ، حتى إذا تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم في الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة .

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة — ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذره من الترك ، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطاني ، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال (٢) . ثم أخذ السلطان برقوق في تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية في الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهري دويداراً كبيراً وإينال اليوسفى أتابكاً للجساكر (٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٣٨-٦٣٥ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٣ ب .

(٣) المسقلافي : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٣ .

الفصل الرابع

استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك - الصلح بين برقوق وبلغا
الناصرى - بقاء قوة الترك فى دمشق واستعانتهم بالعربان -
قضاء بلغا على معظم المماليك الترك . عودة الخصام بين بلغا
الناصرى وبرقوق - محاولة بلغا الناصرى انقاذ منطاش -
ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١ م - القبض على
بلغا الناصرى وقتله - فرار منطاش - عودة برقوق الى
القاهرة - تطهير القاهرة من الترك - القبض على منطاش
وقتله - مطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة - محاولة العربان
اقامة الشريف العنابى سلطاناً سنة ١٣٩٤ م - موقف
السلطان برقوق من باقى الثورات العربية - فشل مبدأ وراثة
العرش فى دولة المماليك الثانية - الصبغة الجديدة - التغيرات
فى نظم الحكم والادارة .

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه فى
١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ - يناير ١٣٩٠ م، وبدأ على عادته سياسياً عاقلاً، متوخياً الحرص
والثبات فى كثير من أموره السياسية ولا سيما فى علاقاته مع أعدائه، فهو أراد بناء دولة
جديدة معتمداً على العصبية الجركسية (١). ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية
التركية التى حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء، كما أن العصبية
العربية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها ممثلة فى عدد كبير من القبائل العربية التى
اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة
للحكم. وتحمست هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة، ولذا عمل السلطان
برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابه مع هاتين العصبيتين، وذلك حتى
يضمن الاستقرار لدولته.

(١) تحدث ابن خلدون عن أهمية العصبية فى قيام الدول فقال: «إن المغالبة والممانعة إنما
تكون بالعصبية لما فيها من النعمة والتأمر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه، ثم إن
الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الميزات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ
النفسية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنازعة
وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشئ منها لا يقع إلا بالعصبية» ابن خلدون: المقدمة ص ١٥٤.

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومحاربة الإشاعات المسببة للفرقة والانقسام في صفوف مماليكه ، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان (١) ، على حين أمر بالعفو عن الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش ، مع تحديد أماكن إقامتهم (٢) . ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة ، بل إن الأحوال الداخلية اضطرتة إليها ، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢ هـ — يناير سنة ١٣٩٠ م — وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق ، وتحريضه لقطلوبغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه — ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصالحه ، ثم عينه أمير سلاح ، والطنبغا الجوبانى اليلبغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء (٣) . وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلبغاوية في مناصبهم كسباً لودهم ، حتى إذا انتظمت أموره في العاصمة استغل عداءهم لمنطاش في القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرفية الترك .

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة في القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة ، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلبغاوية ، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم في القتال في سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرفية . ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلبغاوية بإقطاعات في سورية (٤) ، ثم جعل الطنبغا الجوبانى نائباً لدمشق ، والأمير قراد مرداش الأحمدى اليلبغاوى نائباً لطرابلس (٥) ، وبعثهما على رأس التجريدة ، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعاً ، وجعل مرجع الأمور كلها إليه ، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله « هو غريمك ، اعرف كيف تقاتله » (٦) .

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ — أبريل سنة ١٣٩٠ م — بدا الحظ في جانب السلطان برقوق ، إذ خرج على منطاش حليفه قطلوبغا الصفوى ، وحضر إلى مصر طائعا ، وجعل هذا العمل منطاش يشك في نيات أتباعه ، فقبض على عدد منهم وسجنهم ، مما دفع بعض المماليك الأشرفية إلى تركه والهروب

(١) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) السلاوى : مختصر التواريخ ورقه ٨٥ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٦ .

(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٤ ب .

(٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين ، المجلد الثانى ورقه ١٥ أ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٩ .

إلى مصر للانضمام إلى جانب السلطان (١) . وبدأ جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من ستمائة فارس ، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التي قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش (٢) ، وتوجه إلى بلدة النبك - بين دمشق وحمص (٣) - فتمكن الأمير إيتمش البجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من الجراكسة . ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة ، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش ، إذ دخلوا دمشق دون قتال في آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ - أبريل سنة ١٣٩٠

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجئ صدى كبيراً في القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر ، وأنفق أموالاً كثيرة في الناس ، الذين شغلوا بالتسابق في إقامة الزينات (٤) . ثم نجحت عساكر السلطان برقوق في كسب جولة أخرى في سورية وذلك حين انتصر الأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفي الذي استعان بأهل بانقوسا (٥) ، وحاصر كمشبغا في قلعة حلب فأسرع كمشبغا ونقب القلعة وقاتل الأشرفية بالمكاحل من الثقب حتى ضعف أمرهم ، وقبض كمشبغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا ، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا (٦) .

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربي نعيم بن حيار أمير آل فضل ، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصري . فخرج يلبغا الناصري والطنبغا الجوباني من دمشق إلى سلمية ، وترك بدمشق الأمير إيتمش البجاسي مع الحامية الجركسية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية . غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية الجركسية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة . وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق . ولما كان يلبغا الناصري حريصاً على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه ، فإنه ما كاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع في طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الالبغا العثماني ، حاجب حجاب دمشق ، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً أفنى فيه عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق (٧) .

-
- (١) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٠٦ .
 - (٢) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٥٥ .
 - (٣) راجع : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٤٧ .
 - (٤) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٦٤٤ .
 - (٥) كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٦٧ .
 - (٦) الميني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٣٩٨ .
 - (٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٥ ب .

وبعد أن أعاد الأمير يلبغا الناصري الأمن إلى نصابه في دمشق عاد إلى سلمية (١) .
في رجب سنة ٧٩٢ هـ - مايو سنة ١٣٩٠ م - ، واجتمع بباقي النواب لرسم خطة قتال
منطاش وحليفه نعيم . واتفق في هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى
يلبغا الناصري قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعيم بن حيار ، وأن يقوم الأميران
قراة مرداش الأحمدي نائب طرابلس ، والطنبغا الجوباني نائب دمشق ، بقيادة
الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش .

وحين بدأ القتال في شعبان سنة ٧٩٢ هـ - يونيو سنة ١٣٩٠ م - استطاع يلبغا الناصري
أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعيم بن حيار ، أما قراة مرداش فإنه
اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه ، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق
بين مماليك منطاش وبين الفرقة التي قادها الجوباني . ورغم انتصار الجوباني في بادئ
الأمر ، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوباني نفسه . وتأثر
جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطرت الناصري إلى التقهقر بجيش
السلطان إلى دمشق ليصلح أمره (٢) .

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر
ما تحمس في نفسه لنجاح فكرته ، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من
الأجناد الترك . فاستدعى عدداً كبيراً من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا
الناصرى . واستطاع يلبغا أن يخرج بهم من دمشق في نهاية شعبان سنة ٧٩٢ هـ - يونيو
سنة ١٣٩٠ م - وأن يهاجم عرب آل على - على مقربة من دمشق - وقتل نحو مائتين
منهم ، ونهب بيوتهم وجمالهم ، ثم عاد سريعاً إلى دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به
منطاش (٣) .

وأدى هذا الانتصار مع توالى الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعيم طاعته للسلطان .
وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان ، ولم يتأخر السلطان برقوق في إجابته إلى ما طلب ،
وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته (٤) .

(١) سلمية بليدة من أعمال حماء راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢
حاشية ١ ص ١٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٤٩ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠ .

(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٦ أ .

ولاشك أن منطاش فقد بخروج نعيم جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه ؛ إذ أصبح لا يخشى
عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك ، ولذا اضطر منطاش إلى الارتقاء
في أحضان سولى بن دلغادر التركمانى وطلب معاونته (١) .

وفي ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣ هـ - يناير سنة ١٣٩١ م - لجأ يلبغا الناصرى إلى حيلة
للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية . إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعذائه
للأمير إيتمش البجاسى وللحامية الجركسية ، ونادى بدمشق « من كان من جهة منطاش
فليحضر » وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان ، فانضم إليه نحو
ألف ومائتى فارس منهم ، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم (٢) ، ثم خلع عدة الحرب
وكتب بذلك إلى السلطان الذى أجابه بالشكر والثناء (٣) .

على أن منطاش لم يئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه ، بل استعان بعدد كبير
من عامة دمشق فى مناوئة يلبغا الناصرى ، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب .
ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش (٤) .
ونتج عن هذه الهزائم المتلاحقة خروج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى
مصر طائعين (٥) . وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء ، بل إنه
خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذى حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية (٦) .
ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت فى القضاء على أكثر المماليك
الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية ، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم
فى هذه المعارك المتصلة ، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض
يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية ، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية ، إلا أنه انقلب
فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجئوا إليه ، وعفا
عنهم من وقت قصير ، فى الوقت نفسه الذى قبض فيه على ممالك الطنبغا الجوبانى الذين
عادوا إليه بعد قتل أستاذهم فى المعركة التى دارت خارج دمشق فى شعبان سنة ٧٩٢ هـ (٧) .

(١) العيى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٤٠٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٩٧ .

(٤) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق :

راجع المقرئى : جنى الأزهار من الروض المطار فى عجائب الأقطار ورقة ٤٤ ب .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤٧ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٥٤ .

(٧) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٦-٣١٧ .

وجعل هذا الانقلاب المفاجئ الأمير يلبغا الناصري يفهم نيات السلطان ، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء ؟! وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركي وأنه لاشك عازم على التخلص من باقي اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية . ولذا انقلب يلبغا الناصري بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق ، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية في سورية ، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد بعدم مقابلته في معركة حاسمة ، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر (١) .

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصري اتفق فعلاً مع منطاش ، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق ، وأنه لن يقف في طريقه على أن يظل هذا الأمر سرّاً بينهما ؛ فعاد منطاش من مرعش في أول رجب سنة ٧٩٣ هـ - يوليو سنة ١٣٩١ م - وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس (٢) . ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعليك واستولى عليهما ، وفر نائب بعليك إلى دمشق حيث أخبر الناصري بزحف منطاش على دمشق (٣) . وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصري للقاء منطاش من الطريق الذي سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبداني (٤) . وبدا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذي تقدم إليها بمعاونة بعض ذوى النفوس الدنيئة من عامة دمشق الذين فتحوا له باباً من وراء الجبل ، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرفية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق ، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها (٥) . ثم تمكن منطاش في النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق ، ونزل أمراؤه في البيوت المجاورة للقصر الأبلق ، واحتل باقي أتباعه جوامع المدينة .

وهكذا مكن يلبغا الناصري منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق . ولكي يداري يلبغا الناصري موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق . ورغم أنه حاصر القصر الأبلق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار (٦) ، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصري للحضور واستلامه ؛ ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ ، وزينت له فإن يلبغا

(١) نفس المرجع والجزء ص ٣١٧-٣١٨ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٣) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٦٦ .

(٤) الزبداني قرية بين دمشق وبعليك راجع ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٧٤ .

(٥) كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ١٦٨ .

(٦) المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ - ٦٦٧ .

الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره ، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه (١) .

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق ، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش ، وليشترك بنفسه فى الصراع الدائر (٢) .

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة ، بعد أن اطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عدد كبير من المماليك الترك . ويبدو أن الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل ، حتى أمر السلطان برقوق أن « ينادى فى القاهرة ومصر ألا يركب أحد من المتعممين فرساً سوى الوزير وكاتب البسر وناظر الخالص فقط ، ومن عداهم يركب البغال ، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه (٣) » .

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى ، ووضح أمام السلطان برقوق خطر بقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ - أغسطس سنة ١٣٩١ م ، وولى بدلاً منهم من مقدمى الحلقة الجراكسة (٤) . ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين بالقاهرة ، وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء (٥) وفى ٢٦ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ - أغسطس سنة ١٣٩١ م - أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش (٦) . وعهد السلطان إلى الأمير كمشبغا الحموى بناية الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وما كاد السلطان برقوق يرحل عن القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية (٧) ، وشدة متناهية قصد بها

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٥٧ - ٦٥٩ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦ - ٢٧ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٥ .

(٧) من هذه الأحكام القاسية أن كمشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٧٩٣ هـ بمنع النساء

فى يوم العيد من الذهاب إلى المقابر ، وأن من خرجت وسطى هى والمكارى ، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب ، وألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكام ، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مبالغة النساء فى سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً . ولم يحسر أحد على مخالفة كمشبغا . راجع العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٢٣ .

لإنزال الرعب في نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لا تحدث نفسها بالثورة . وبلغت شدة الأمير كمشبعاً درجة لم يجسر معها أحد في مدة حكمه أن يحمل سلاحاً .

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق في ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣ هـ سبتمبر سنة ١٣٩١ م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصري فإنه أخفى ما في نفسه على من معه ، بل إنه أعلن في دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم ، وصار لهذا العفو أكبر الأثر في كسب عدد كبير من عامة دمشق (١) .

وفي الثاني من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بجمص وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش (٢) ، الذي فر إلى سالم الدوكاري التركماني . ولا شك أن وجود السلطان برقوق في حلب كان له أكبر الأثر في إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على جماعة من المماليك الترك الأشرفية ، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته (٣) . كما أرسل إليه سالم الدوكاري يخبره أن الأمير منطاش في قبضته وأنه ينتظر من يسلمه . واعتقد السلطان برقوق أن سالماً مخلص في قوله ، فأرسل إليه الأمير قرادمرdash مع عدد من العسكر لإحضار منطاش . غير أن سالماً الدوكاري عاد واتفق مع يلبغا الناصري على الإبقاء على منطاش فماتل قرادمرdash عدة أيام (٤) ، حتى أن قرادمرdash حين تحقق أن سالماً الدوكاري لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه ، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٥) . ولما عرف السلطان برقوق بمحاولة سالم الدوكاري ، أرسل إلى يلبغا الناصري يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له . ثم إن بعض الأخبار التي نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قرادمرdash بسالم الدوكاري سل سيفه وأراد قتل قرادمرdash لولا تدخل الأمراء (٦) .

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق مما أشيع عن اتفاق الناصري مع منطاش ،

(١) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٢) Iorga : Notes & Extraits T 11 p. 535

(٣) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٩ .

(٤) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٨٦ أ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٧٠ — سنجار مدينة مشهورة من

فواحي الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام — راجع " ياقوت : معجم البلدان

ص ١٤٤ .

(٦) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣١٩ .

وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصري من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش ، كما تحقق السلطان مما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا ، وأن يلبغا تخاذل في القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق (١) . كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتمعا في هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط (٢) . وأن رسل الناصري كانت ترد على منطاش في كل ليلة بما يأمره به ، وأن سالماً الدوكاري لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصري (٣) . وأكثر من هذا فإن قراد مرداش عثر عند سالم الدوكاري على خطاب من يلبغا الناصري جاء فيه « خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجوداً فنحن موجودين » (٤) وتحركت عند السلطان برقوق الكمائن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحبسه بالكرك ، وما تسبب فيه من الفتن . ولم يجد السلطان برقوق مجالاً للشك في نيات يلبغا حين سأل إيتيمش الذي أرسله لتتبع الأشرفية عن سبب عودته فجأة ، فأبلغه أن يلبغا الناصري هو الذي أرسل إليه كتاباً ليعود سريعاً إلى دمشق (٥) . ولهذا انتظر السلطان برقوق في حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصري يعلن فشله في مهمته فقبض عليه وعلى أمير أخورة ورأس نوبته ، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا في ذي القعدة سنة ٧٩٣ (نوفمبر سنة ١٣٩١ م) (٦) .

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصري يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة ، ولو لم يكن أكثر اليلبغاوية قتلوا في هذه المعارك ، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك ؛ والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيراً على يلبغا الناصري مع أنه تسبب في كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة (٧) ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرفية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم في هذه الحروب ، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش .

وفي ١٧ من المحرم سنة ٧٩٤ هـ - يناير سنة ١٣٩٢ م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة

-
- (١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٣ .
 - (٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٧١ .
 - (٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩ أ .
 - (٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
 - (٥) ابن دقاق : الجواهر الثمين المجلد الثاني ورقة ١٦ ب .
 - (٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٢ - ٣٣ .
 - (٧) الميمني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٤٣٦ .

التي استقبلته استقبالا رائعا إذ « تلقاه المسلمون بالحناء الشريفة واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والشموع الموقدة . وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس (١) واصطف الناس لرويته إلى أن طلع القلعة في موكب جليل إلى الغاية (٢) » .

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصري هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم ، فخلع الأمير استدر الأشراف من ولايته في نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولي مكانه واحداً من مماليكه (٣) . ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم ، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة (٤) ، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة . ومن هؤلاء الذين ارتقوا في هذه الحركة ايتمش البجاسي الذي أصبح رأس أنوبة الأمراء . ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكه الأمير تنبك الحسني الظاهري المعروف بتيم نائباً لدمشق ، بعد أن تولى عليها نواب من الترك اليلبغاوية (٥) .

غير أن الأحوال في سورية عادت إلى الاضطراب في شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢ م — بسبب عودة منطاش إلى مزاولة نشاطه المعادي للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه — بعد أن فقد أنصاره من الترك الأشرافية — في إثارة بعض القبائل العربية وبعض التركمان ؛ ذلك أنه اتفق مع نعيم بن حيار الذي حنث بعهد الأخير مع السلطان ، ومع ابن بزدرغان التركماني وهاجم الجميع سلمية . غير أن الأمير العربي محمد بن قارا — الذي عين أميراً على آل فضل بدلا من نعيم — استطاع بمعاونة التركمان المواليين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش وإلحاق الأذى به ، كما قتل ابن بزدرغان واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثنائه على جهوده في خدمة السلطنة المملوكية الثانية (٦) . وكما فشل هجوم منطاش على سلمية في شعبان سنة ٧٩٤ هـ — أغسطس سنة ١٣٩٢ م ، فشل هجومه بالاشتراك مع نعيم على حماة في الشهر التالي بسبب مقاومة نائبها الأمير أقبغا الصغير . وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقنه أهلها درسا قاسيا ، فاضطر إلى الفرار إلى العراق (٧) .

-
- (١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٩٥ .
 - (٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٥ .
 - (٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩ .
 - (٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
 - (٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٨ .
 - (٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٣٢ .
 - (٧) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٠ ب .

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت في ٣ من رمضان سنة ٥٧٩٥ هـ - سبتمبر سنة ١٣٩٣ م على يد الأمير جلبان الكمشباغوى البحر كسى نائب حلب (١) الذى استطاع الاتفاق مع نعيم بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتفى بنعيم ، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل . وأرسل الأمير جلبان شادشر بخاناته في خمسة عشر مملوكاً ، وندب نعيم أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الهرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد ، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان (٢).

وحين بلغ السلطان النبأ سروره عظيماً ، وأنعم على جلبان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه « فوقانيا بطرز ذهب مزركش » ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جلبان بالخلع ، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة في اليوم التالى زينة عظيمة ، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله ، غير أن منطاش لم يعترف بشيء ، فلبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب ، ثم أخذه وعاد به إلى القاهرة ، وبعد أن طاف به شوارعها علق الرأس على باب القلعة ، ثم نقل ليعلق أياماً أخرى على باب زويلة (٣) .

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التى أثارها على الترك إزالة أهم عقبة اعترضته في سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية (٤) .

غير أنه ينبغي أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب ، بل ضد الجراكسة كذلك ، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسى من جيش برقوق في أيدي الترك فإنهم جردوه من ملابسه ، وألقوه في السجن ، والعكس حين وقع في أيديهم مملوك تركى من جيش برقوق فإنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراحه (٥) .

ومن المشكلات الداخلية التى واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات

(١) Sauvaget, J : Noms Et Surnoms Des Mamlouks, J.R.A.S. (١) p. 47 ,Paris 1950.

(٢) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١ .

(٣) ابن دقاق : الجواهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٨ أ .

(٤) راجع ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ١٠٤ وما بعدها .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٦٤ .

العربان وهم الفلاحون والبدو (١)، ومع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعى كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين ، نظراً لأنهم كانوا يؤدون خدمة حربية ويشتركون فى الجيش المملوكى بكتائب احتياطية ، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن فى البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة (٢) . وكانت العادة المملوكية القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منها ويكتب له تقليداً سلطانياً بذلك ، ويلبس الأمير المعين «تشرىفاً أطلس» أسوة بأقرانه فى الترتيب الإقطاعى (٣).

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت ثورات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج . أما عربان الشام فإنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعاتهم ضده . ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هوارنة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد (٤) ، فإنهم لم يكفوا عن العصيان، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وامتد عصيانهم حتى نواحي أسوان وأذعنتم لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادهم (٥) ، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى .

على أن أهم ثورات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابى (٦) سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٤م - أى فى السنة الثانية عشرة لحكم السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين (٧) .

وسبب هذه الثورة أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى

Piloti : l'Egypte Au Commencement Du XV siecle, (١)
pp. 18-19,

Poliak : Les Revoltes Populaires pp. 256-257. (٢)

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٤) المقرئى : البيان والإعراب ص ٦٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٩ .

(٦) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه بالكرك ، وأفضى هذا الشريف إلى السلطان بأسرار صحت عنده فيما بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته ، ورتب له فى كل شهر ألف درهم .

راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ .

(٧) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شمائل بالقاهرة هو وأقاربه وإخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه .

راجع نفس المصدر والجزء والصفحة .

ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالتزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك، وجاء في الكتاب أن الشريف العنابي اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه في أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابي الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون في الخطة.

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابي وقع في يد علي بن الطبلاوي وإلى القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق (١) وأسرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابي وشريكه وعذبهما ليقرأ علي من اشترك معهما في المؤامرة، فلم يعترفا بشيء سوى أنهما استعاناً بطائفة من ممالك بركة الترك.

والخلاصة أن السلطان برقوق تخلص من هذه المؤامرة بأن ترك الشريف جمال الدين محمود العنابي وشريكه يقضيان نحبهما في العذاب الأليم (٢).

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحي بيا، واستولى على نحو خمسين من جيادهم، كما قبل في نفس الوقت عقد الصلح مع نعيم بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعيم إلى القاهرة سنة ٧٩٧ هـ ودخل عند السلطان وفي رقبته منديل، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه في إمرته (٣).

ثم عاد عرب هوااره يهددون السلطان برقوق في ربيع الآخر سنة ٧٨٩ هـ — مارس سنة ١٣٩٦ م — حين أرسل إليه علي بن غريب أمير عرب هوااره بمنع القود السنوي من العربان والخييل، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظي رأس نوبة، فقبض نوروز على علي بن غريب وأولاده وإخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم (٤). بيد أن عرب هوااره حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قطلوبغا الطشتمري نائب الوجه القبلي، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا واليها إلى الفرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة، وإزاء هذا ولي السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلي بالإضافة إلى وظيفته في ولاية منفوط، وأمره بالتوجه إلى أسوان، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الثوار (٥). وظل العربان يتناصبون

(١) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٠٠ .

(٣) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٨٤ .

(٤) ابن دقاق : الجواهر الثمين ، المجلد الثاني ورقة ٢٣ أ

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ ب .

السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقماعهم سنة ٨٠١ هـ - سنة ١٣٩٩ م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين (١) .

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربي دفعه إلى استخدام العرب بالبحش (٢) . ودليل هذا ما ذكر عن استعانة برقوق بعرب هواره سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م (٣) ، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية في صد غارات تيمورلنك ، حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس ، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة ، وأسهمت باقي القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس (٤) .

وليس من شك في أن قوة السلطان برقوق وتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان .

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبيّة التركيّة ، وحد من نفوذ العربان وواجه كل هذه الحروب والفتن في شجاعة وقوة .

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التي صار لها أكبر الأثر في تدعيم كيان دولته ، ومن هذه الإصلاحات إبطاله الكثير من المكوس التي كانت عبئاً كبيراً على الناس (٥) . ثم إنه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحري ، هذا الجسر الذي عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين . وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التي أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية ، وحتى تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية ، أي ناحية البحيرة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس في حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب . وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث سنة ٨٠١ هـ .

(٢) Paliak : op. cit. p. 260 .

(٣) راجع ما سبق بالفصل الثالث ص ٩٢ - ٩٣ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٥) راجع ما سبق بالفصل الثانى ص ٥٦ .

الأمير جهار كس (جار كس) الخليلي، أحد قواده المخلصين (١). وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين، وأصلح خزائن السلاح بثغر الاسكندرية، وسور مدينة دمنهور ليقىها من هجمات البدو. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقىها من هجمات البدو، كما عمّر زاوية البرزخ بدمياط (٢)، وقناة العروب بالقدس، وبني بركة بطريق الحجاز إلى الحج. وجدد السلطان برقوق القناة التي تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وزرع به بعض النباتات، وبني صهريجاً للماء، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلاً تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة (٣)، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التي أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجري، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر في مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما بعد (٤). ثم إن السلطان برقوق اهتم بالعلم إذ افتتح مدرسته التي بناها بين القصرين في أثناء سلطنته الأولى في احتفال عظيم، واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم العربي (٥)، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير، ودرساً للحديث، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها في كل يوم الخبز واللحم، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدرهم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضي والدور ونحوها (٦).

وفي شوال سنة ٨٠١ هـ - يولية سنة ١٣٩٩ م - مرض السلطان برقوق مرض الموت. وحين شعر بدنو أجله في ١٤ من شوال، وخشى أن ينهار هذا البناء الذي كافح من أجله طويلاً، فكر في أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده، ولذا استدعى الخليفة المثلوك، والأمير ايتمش، وقاضي القضاة، وسائر الأمراء، وأجلس الخليفة عند رأسه، والقضاة الأربعة بين يديه، وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ص ٢٦٩ ج ٢ - المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبي النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان - راجع كذلك ابن ماق : قوانين الدواوين ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥ .

(٤) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٥) راجع السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١١٣ .

بالسلطنة لأولاده من بعده ، وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم على التوالي ، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد ، وأن يستمر جميع الأمراء في وظائفهم حسب ترتيبيه ، وأن يكون ايتمش أتابكاً لصغرسن فرج . وفي ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩ م توفي السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة (١).

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق . ذلك الرجل الذي امتاز بهذه العقلية الفذة في وسط تملوكي طغى عليه الضعف والجهل في آن واحد . تحدث عنه العيني بأنه « كان حسن القامة ، عريض الكتفين ، فصيح السلطان ، ذكي . الفهم ، عالماً بألوان القروسية ، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن ، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزانة والصبر والتحمل لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التمربغاوى في يومى الأحد والأربعاء مع الأمراء (٢) » . وامتدحه الخطيب بأنه « كان كثير الإحسان للمحتاجين محباً لأهل العلم والخير والدين ، متواضعاً معهم ، ولم يعرف لأحد من السلاطين قبله هذه الصفات » (٣) . والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشتغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر في دولة المماليك الأولى ، ولكنه يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاية والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته (٤) ، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة . في بداية سلطنته في الوظائف المختلفة فإنه فشل (٥) كما فشل في إيقاف تيار غش النقود (٦) ، مما كان له أكبر الأثر في الأحوال الاقتصادية وقتذاك .

وإذ حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذي عرف في بيت قلاون ، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد (٧) . حقيقة لم يكن في وسع أحد من ممالك السلطان برقوق أن يعارض في تنفيذ وصيته لفضله عليهم ، فسلطوا ابنه فرج في

(١) ابن تغرى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٢ ، ٦٣ - القمز عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان القمز يسكر راجع ابن إياس ج ١ ص ٢٦٩ - أما التمربغاوى : فهو شراب صنعه الأمير تمربغا سنة ٧٩٧ هـ من الزبيب أعجب به السلطان برقوق وسمى التمربغاوى : راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ ب .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٤ .

(٥) المقرئ : المقفى الكبير ج ٣ ورقة ٢٨ .

(٦) الأسدى : كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣ .

(٧) Devonshire : l'Egypte Musulmane p. 93

١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩ م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له ، ولكن سرعان ما ناصب الخاصكية - بزعامة الأمير يشبك الخازندار - الأمير أيتمش أتابك السلطان فرج العداء ، بسبب ما بدا بينهم وبين باقي كبار الأمراء المناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً . وما زال الخاصكية بالسلطان حتى طلب من أيتمش أن يرشده . كما نجحوا في طرد أيتمش من القلعة فسكن خارجها . غير أن نجاح الخاصكية في إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذي لم يرض أفرادَه بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذي استحوذ على النفوذ (١). وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ - سنة ١٤٠٠ م (٢) .

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الثائر على فرج في سورية . واجتمعت في سورية الفئات المملوكية الثائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق ، وشيخ المحمودي نائب طرابلس ، ويشبك الخازندار ، ومع أن جميعهم من مشروعات السلطان ببرقوق الجراكسة ، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية ، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة ، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج (٣) . وظل فرج عاجزاً عن إقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار في ذي الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة . ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم ، فتمكن جيشه من هزيمتهم ، وفكروا إلى سورية ولكنهم عادوا في ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ فبرابر سنة ١٤٠٥ م ، واشتركوا في خلع فرج الذي اختفى في بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه . . ولم تكن هناك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموي عنيف ، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبد العزيز (٤) . غير أن عبد العزيز لم يستمر في السلطنة طويلاً ، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلقي وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقي مخفياً تسعة وستين يوماً ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٠٨ هـ - أبريل سنة ١٤٠٥ م . واستمر فرج في السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥ هـ - يناير سنة ١٤١٢ م (٥). ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة في السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة في

(١) المقرئى : السلوك (النسخة المصورة) ج ٣ ورقة ١٣ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦ .

(٣) ابن تنزى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٦٨٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠ .

بيت برقوق ، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعه عاملان : أولهما إعداد الجيوش لصد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية ، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس للدولة الجديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر في أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم في خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر ، حتى إذا انمحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ الحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله ، وسلطن الخليفة المستعين فى ٢٠ من المحرم سنة ٨١٥ هـ (١) . وجعل الأمير شيخ الحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه (٢) . ولكن محاولته سنة ٨٢٣ هـ لإبقاء السلطنة فى بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١ م . وبرسبای سنة ٨٢٥ هـ - ٨٤١ هـ وجقمق سنة ٨٤٢ هـ - سنة ٨٥٧ هـ وإينال سنة ٨٥٧ هـ - سنة ٨٦٥ هـ فى تولية ابن كل منهم السلطنة بعده ، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهور أو أيام ، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين فى دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشروعاته للظفر بالقوة والسلطة ، فضلا عن الإكثار من عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشروعات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر (٣) ، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية .

وهكذا صار المماليك فى دولة المماليك الثانية ينتخبون للسلطنة أوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، أو أكبرهم سناً فى بعض الأحيان ، ولم يكن هؤلاء فى غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً فى مصر أو سورية . ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة ، وانتهت شيئاً بعد شيء إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه (٤) . *Primus Inter Pares* ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليغاركية العسكرية ممثلة فى زعماء المماليك المقدمين ، وكان هؤلاء شديدي الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية ، فعهدوا فى تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية (٥) .

(١) العيى : السيف المهند ص ١٩٢ .

(٢) الطيشى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ٣٢ أ ،

Demombynes : La Syrie A l'Epoque Des Mamlouks ; intr. p. XXV.

(٣) راجع العريى : الفارس الملوكى ص ٦٧ ب .

(٤) انظر Hitti : Hist. of the Arabs : p. 694

(٥) Brockelmann, C : Hist. of Islamic Peoples : p. 236

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية اصطفت بصيغة جديدة هي الصيغة الجركسية ، وهي التي أصبحت أهم الصفات التي ميزت دولة المماليك الثانية عن دولة المماليك الأولى ، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه ، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ٧٨٢ هـ - سنة ١٣٨٠ م ، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم . ومن تجار السلطان برقوق الذين عاونوه في هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى (١) . وعلى حين بلغ عدد الجراكسة في بداية سلطنة برقوق نحو ألفي مملوك ، ارتفع هذا العدد في نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جركسى (٢) ، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العيني بنحو عشرة آلاف مملوك (٣) .

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى . ووضع هذا التمييز العنصرى في تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاعات الكبيرة وتوظيف شبابهم في الوظائف الكبرى ، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأيه صراحة في قوله « هم أولاد عمى وعشيرتى » (٤) ولم تأت سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من ممالك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة (٥) .

وبلغت حرب الإبادة التي شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى أنهى موسوعته : « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » سنة ١٤١٢ م ، ذكر أنه في وقته « قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم » (٦) فضلاً عن أن حروب تيمورلنك في وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية ، وأدى هذا إلى تغير واضح لا في العناصر التي كونت الجيش المملوكى فحسب ، بل في حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك ، إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية - وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى في دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام في دولة المماليك الثانية (٧) .

(١) ابن تفرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١٨٩ ب .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٧ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦٣ .

(٤) كتاب قهر الوجوه العباسية ص ١٢ - ١٣ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٩١ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٧) Poliak : le Caractère Colonial p.p. 242-244

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى في ضمان بقاء السلطنة في بيته^(١)؛ ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى في أواخر أيامه إذ رغم اعتزازه بالجراكسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له ، وذلك أنه في ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠ هـ - سنة ١٣٩٨ م دبر الأمير على باى - رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتز بهم برقوق - مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو في طريقه إلى حفل فتح الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذرته . وعمل حتى فشلت خطة على باى ثم قبض عليه وخنقه (١) .

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسى في نفس برقوق تأثيراً كبيراً جعلته يندم على اعتماده على بنى جنسه ، وبدأت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير على باى من مشروعاته الذين رباهم ، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دوا داره ، وأقطعه إقطاعاً وافراً . ولم تمض مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه (٢) . وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه « لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة » (٣) . والحلاصة أن السلطان أمن له في كل الأمور ، ولم يتصور أن يقدم على باى على الخيانة ، ولهذا لا نعجب أن تؤدي هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير على باى وتعذيبه ، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون على باى ذكرواحداً منهم من قسوة العقوبة . ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم يتصح بنصيحة زوجته التركية « خوند الكبرى ارد » التي طالما حذرته من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها : « اجعل عسكريك أبلق من أربعة أجناس : تتر ، وجركس ، وروم ، وتركان ، تستريح أنت وذريتك » (٤) . ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصيحة بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته « الذى كنت أشرت به على هو الصواب ولكن هذا كان مقدرآ ، ونرجو الله تعالى لإصلاح الأمر من اليوم (٥) » .

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشروعاته الجراكسة ، وأخذ في ترقية بعض العناصر الأخرى (٦) ، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة في

(١) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٤٣٨ .

(٢) العيى : عقد الجان ج ٥ ، ورقة ٣٦ .

(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٤ أ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٨٨ .

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٦) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧ .

دولة الممالك الثانية لعاملين : أولهما أن عدول السلطان عن تماديه في الاتجاه العنصرى جاء في أواخر أيامه ، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجرأكسة من مشرّواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى في الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجنود من الجراكسة ، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية .

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسى ، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة ، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة الممالك الترك ، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجرأكسة . ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى بردى الذى امتدح حكم طشتمر العلأى التركى (سنة ٨٧٧٩هـ) ، ووصفه بالازدهار على حين بّين أن هذا الازدهار اختفى بعزله وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غيره من العناصر المملوكية وإعطاء الجراكسة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم . وبين ابن تغرى بردى المراتبة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : «أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر ، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فإنهم حينما وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأدنوه ، فكان لا يلى وظيفة إلا من يستحقها» (١) .

على أن سياسة الجركسة التى بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراكسة أنفسهم . ويرجع هذا إلى مخالفة السلطان فرج لاتجاه أبيه ، حيث مال إلى الممالك الروم لأن أمه «خوندشيرين» كانت رومية (٢) . وحين مال فرج إلى الروم وزاد فى إكرامهم حقق عليه الجراكسة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسى أكبر الجراكسة سنا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣ هـ (٣) - سنة ١٤٠١م - ثم عاد الجراكسة يتحينون الفرص لقتل فرج ، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع ممالكه فى حمام فى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ - سنة ١٤٠٥ م ، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومى (٤) . وكان سبب اختفاء فرج فى هذه السنة إحساسه بكراهية الجراكسة له ، وأنهم لم يهتموا بشكواه فى موضوع اعتداء بعض الممالك الجراكسة عليه فى الحمام (٥) . واعتقد الجراكسة أن سلطنة أخيه عبدالعزيز ربما تبعد النفوذ الرومى الذى بدأ فرج فى تشجيعه . غير أن عودة فرج إلى عرشه فى جمادى الآخر

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٢٢٨ ب .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٣) العيى عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق وأجزاء ص ٣٢٩ .

(٥) المرجع السابق وأجزاء والصفحة .

سنة ٨٠٨ هـ كان ضيفاً على إبانة، إذ تعقب السلطان فرج الجراكسة في سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم في يوم واحد مائة جركسي (١)، ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا في سنة ٨١٤ هـ سنة ١٤١١ م (٢)، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج بانقسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب، ولم يكن عجيباً أن يتمكن واحد منهم من قتله في ١٧ من صفر سنة ٨١٥ هـ (٣).

أما شيخ الحمودي الذي تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥ هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه، وتردد في سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جركسي مثلهم، فلم يظهر ميلاً نحوهم، كما أنه لم يظهر ميلاً للروم كما فعل السلطان فرج، وأوضح ابن تغري بردي سياسة شيخ في قوله: «كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من الممالك، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره، بل حيثما ظهرت له النجاة من الشخص قربه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك (٤)». على أن ابن تغري بردي عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض الترك لأن أكثر أمرائه كانوا منهم (٥). وكيفما كان الأمر فإن النكسة التي منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً في عهد برسبای.

ومهما يكن من شيء فإن هذه الصبغة المملوكية الجديدة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم (٦)، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشي أتاكاً له، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشي ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطمعه في السلطنة، لأنه على قول ابن تغري بردي «كان من جنس غير جنس القوم لا غير (٧)».

-
- (١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) ج ٦ ص ٢٥١.
 - (٢) المسقلاني: إنباء الغمر ج ٢ ورقة ٣٠ ب.
 - (٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩، انظر ماسبق بهذا الفصل ص ١٠٧.
 - (٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٢٠٦.
 - (٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) ج ٦ ص ٤٣٠.
 - (٦) بلغ تيمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية في سياسة الجركسة أن برسبای أطلق من إق من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥ هـ حتى تهتكوا في المتنزهات وفسد حالهم وباع بعضهم أرزاقهم وصاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى في الأسواق (راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج ١ ورقة ٢٦٥).
 - (٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) ج ٦ ص ٥٤٧ - وثمة أدلة أخرى على أن عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية حالة الخليفة المستعين الذي جعل ألعوبة في عملية التنافس السياسي حين انتخب سلطاناً.

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق في جلب أقاربهم من بلادهم الأصلية في أعداد كبيرة (١) . ومع أنه لا يتقصنا الدليل على هذا الاتجاه في عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ . وبلغ هذا الجلب أكثره في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي برغم مغالاة التجار في أثمان المماليك الجراكسة لتهافت السلاطين على شرائهم (٢) . وإذا شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين ، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريباً عسكرياً دقيقاً كما لو كانوا في سن مبكرة عن هذا . وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا في الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم مع أهمية هذه التربية في إعداد المملوك خلقياً وعسكرياً . ثم ساد في دولة المماليك الثانية محاباة السلاطين وكبار رجال.

عقب سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة شهور في سنة ٨١٥ هـ - سنة ١٤١٢ م (راجع: Arnold The Caliphate (p.p 100-101) ثم في الحالتين اللتين اعتلى فيها السلطنة اثنان من الروم وهما: خشقدم وتمرينا (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة « كاليفورنيا » ج ٧ ص ٦٦٧ ، ٧٤٢ السيوطي : نظم المقيان ص ١٠٩) وفي سلطنة خشقدم في ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥ هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانم نائب الشام لأنه « رجل عظيم ومن الجنس » (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧) . وإذا انقسم المماليك فرقا وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيص فإن أهم ما كان يعينهم أن يتولى السلطنة واحد من فرقهم يمكنهم تحقيق مآربهم في السيطرة على شئون الدولة . ولذا عرض الأمير جانبك المشد على الأمراء حسماً للموقف سلطنة الأمير خشقدم المؤيد « فإنه من غير الجنس ، يعنى كونه روى الجنس ، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعكم أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام » . (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) . ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم ؟ أما الإجابة فتتضح في أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة في سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane-poole : Hist of Egypt p. 325) أما تمرينا الذي وصل إلى السلطنة في ١٠ من جادى الأولى سنة ٨٧٢ هـ - سنة ١٤٦٧ م . فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا للسلطان يلباى سنة ٨٧٢ هـ . كما أنه كان يحكم أقدميته في الإمارة مقدما للمماليك الظاهرية الجراكسة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ « كاليفورنيا » ص ٧٥٧ - ٧٥٨) وتوهم تمرينا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايتباى الجركسى والرجل الثانى في فرقة الظاهرية الجراكسة أتابكا للمساكر . غير أن قايتباى أمكنه أن يجمع شمل الجراكسة ويخلع تمرينا دون كبير عناء وذلك في ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨) .

(١) راجع السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٩ ، ٣٠٧ .

(٢) البغدادى : عيون أخبار الأعيان : ورقه ٤٨١ .

الدولة لأقاربهم والإناعام عليهم بالرتب والإقطاعات في غير نظام (١) . وتبع هذا كثرة المصادر وانتزاع الأوقاف وتوزيعها لإقطاعات (٢) وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعات (٣) .

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء لينال وقايتباي (٤) . ولم يكن غريباً بعد هذا الاتجاه أن يأتي الجلبان من الجراكسة إلى مصر ، وخیال السلطنة في رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية مثله السلطنة (٥) .

ولاشك ، أن مريعة تخريج الممالك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم صار عاملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية في دولة المماليك الثانية ، ذلك النظام الذي كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى . وأنحى المقریزی باللائمة على السلطان يرقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه « رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج ، فترلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخذوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد (٦) » . ويضيف أيالون Ayalon إلى العوامل التي سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عاملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمريبات الحربية ، التي كانت من أزم الأمور لتربية الفارس المملوكي في الدولة الأولى ، تلك التمرينات التي اعتمدت على السيف والنشاب والقوس ، واستبعد أيالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية في الجيش المملوكي وقتذاك (٧) . والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التي أدت إلى فساد عام في المجتمع الحربي المملوكي ؛ ومن أهم هذه العوامل — إلى جانب ما ذكرنا — إبطال السلطان

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ أ ، ج ٢ ورقة ٦٢ أ ، ج ٣ ورقة ٢٥ ب .

(٢) المقدسي : نزهة الناظرين ص ٢٥٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ « كاليفورنيا » ص ١٩٥ — ذكر ابن تغرى بردى في نفس المرجع والجزء ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن مملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده ، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المنارم والظلم المستمر وقلة نظر الحكام في إحكام البلاد .

(٤) راجع ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٤ ، ٢١٠ .

(٥) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١ .

(٦) المقریزی : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٧) Ayalon : Gunpowder & Firearms. p. p. 52-54

برقوق عادة الركوب إلى الميدان ، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيد في الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة ، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على .أى سنة ٨٠٠ هـ - سنة ١٣٨٩م - صلى السلطان بقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة ، لخوفه من المؤامرات وهجر الميدان (١) ، وهجره من جاء بعده من السلاطين ، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطاني (٢) . ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام السلطان فرج بن بقوق لتفضيل المماليك الراتب النقدي ، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباقي مع قلة عددهم حتى صار غذاؤهم في الغالب الفول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره (٣) . وأضاف المقرئى عوامل أخرى أسهمت في ضعف هذا النظام في قوله : « وبقي الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار وغير ذلك . واستقر رأى الناصر فرج على أن تسليم المماليك للفقير يتلفهم بل يتركون وشئونهم ، فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفساً ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فيهم إلا من هو أذن من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنه ما من شهر إلا ويظهر من التحلل العام ما لا يتدارك فرطه (٤) » .

واقترضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان بقوق عدة تغيرات في نظم الحكم والإدارة . وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتى كادت تتلاشى ؛ ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة في أوائل دولة المماليك الأولى (٥) لكن

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع ابن تغرى بردى : منتجات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان في عهد باقي السلاطين حتى عهد الغورى حين بدأ في صفر سنة ٩٠٩ هـ يولي ١٥٠٣ م بإنشاء ميدان كبير رغبة في عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصفوى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع .

Ayalon : op. cit p. 57-58

(٣) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤ .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

(٥) كان أول ملوك تولي الوزارة في الدولة المملوكية الأول هو سنجر الشجاعى (٦٩٣ هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد في هذا العصر مؤداه « أن الوزارة إن لم يتقلدها ملوك فسد الحال » ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضمار شأن الوزارة دون إلغائها . راجع

Ayalon : Studies, 111 p, 61.

استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها ، واقتصر متوليها في دولة المماليك الأولى على التحدث في الأمور المالية ، ووزعت باقي اختصاصات الوزير على ثلاثة : هم ناظر المال ، واختص بتحصيل المال وصرف النفقات ، وناظر الخاوص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين ، والثالث هو كاتب السر واختص بالتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً^(١) . أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة في يده ، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذي أقام فيه ناظراً وشادين وكتاباً ، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف ما يتحصل منه في جوامك ممالكه المشتروات ، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة^(٢) ، حتى اقتصر اختصاص الوزير على التحدث في أمر المكوس ، فيحصلها من جهاتها ويصرفها في شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات إنفاق القصر السلطاني . وبلغ من ضعف شأن الوزارة آنذاك أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش ، يشتري (الوزير) اللحم والخطب وحوايج الطعام ، وناظر الخاوص غلام صلف يشتري الحرير والصوف والنصافي والسنباب وأما ما كان للوزراء ونظار الخاوص في القديم فقد يطل^(٣) » .

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة ، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاوص والوزير ، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك في دار العدل وفي داره ، وأخذ الاستادار التصرف في نواحي أرض مصر والتحدث في أمور الدواوين السلطانية وفي كشف الأقاليم وولاية النواحي وفي كثير من أمور الوظائف ، وأخذ ناظر الخاوص جانباً كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها في متعلقات الخزانة السلطانية ، وبقي للوزير شيء يسير جداً مما كان يتحدث فيه ، فاقصر على النظر في المكوس وبعض الدواوين ومصارف المطبخ السلطاني والسواقي ، كما صار مرجع ناظر الدولة وشاد الدواوين وناظر بيت المال وناظر الاهراء ومستوفي الدولة ، وناظر الجهات . أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره^(٤) .

وثمة تغير آخر في نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، راجع كذلك

Poliak : Feudalism : p. 4.

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم في دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب (١). وكانت رتبة الحجة في دولة المماليك الأولى رتبة جليلة ، وتأق في الترتيب الوظيفي بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجة حاجب الحجاب . والحجة وظيفة من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر في مخاصمات الأمراء والأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ، ونحو ذلك تارة بنفسه ، وتارة بمشاوره السلطان ، وتارة بمشاوره النائب . وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند . وكثيراً ما قام الحاجب مقام النائب في غيبته أو اعتقاله (٢) . ويبدو أن السلطان يرقق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم في القبض على المتآمرين منهم مجرد صدور أمر السلطان .

ولم يكن أحد من الحجاب في دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم في شيء من الأمور الشرعية ، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صار للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكاتبه الولاية في مختلف الأعمال والأقاليم (٣) وفي عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية . ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع ، وإنما ارتزقوا من النظر في مظالم الناس ، وصار الحاجب يحكم في الناس جميعاً حتى في الأحكام الشرعية ، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر في قضايا الناس ، حتى صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضي ويتحكم فيه بضربه أو أخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك (٤) .

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحري ونيابة الوجه القبلي . ولم تكن هناك بالوجه البحري سوى نيابة الإسكندرية التي رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨هـ بسبب كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية . وفي عهد السلطان برقوق أصبحت دمنهور مقر نائب الوجه البحري . وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان في البحيرة ، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبها أهمية كبيرة . ويؤيد هذا الرأي ما ذكره القلقشندي أن نيابة دمنهور « ليست على قاعدة النيابات بل هي في الحقيقة ولاية حرب كبيرة (٥) » . وترتب على هذا التغيير الإداري أن جعل للوجه البحري كاشفاً من أمراء الطبائخانة يحكم سائر بلاد الوجه البحري فيما عدا البحيرة ، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع

-
- (١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٩٧ .
 - (٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٩ .
 - (٣) المقرئزي : نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩ ، ٢١٩ - ٢٢٠ .
 - (٤) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
 - (٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥ .

في كل أموره إلى نائب الوجه البحرى (١) . وإلى جانب هذا أبقي السلطان برقوق على وظائف الولاة التي عرفت في دولة المماليك الأولى في الوجه البحرى في بليس وفي منوف والمحلة ؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحرى (٢) .

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التي هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشئ نيابة أخرى بالوجه القبلى صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها في رتبة نائب الوجه البحرى بل لعله أعظم شأناً منه ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها (٣) . على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه والى الولاة . وحين ازدادت الأخطار التي هددت البلاد من النوبة والحبشة استحدث برقوق وظيفة والى أسوان ، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والى قوص . والخلاصة أن الوجه القبلى صار فيه خمسة ولاة في البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان ، وجميعهم تابعون لنائب الوجه للقبلى (٤) .

ثم إنه نظراً للأخطار الخارجية التي أهدقت بالسلطنة المملوكية الثانية في بدايتها ، جعل السلطان برقوق^{*} نواب الثغور والبلاد الواقعة على الحدود من مقدمى الألف بعد أن كانوا في الدولة الأولى في رتبة أقل . ومن هذه النيابات عينتاب ودرنده وشيزر والأبلستين وإياس وطرسوس والبيرة (٥) .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢٦ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الثانية وجيرانها حتى سنة ١٤١٢ م

ظهور تيمورلنك في الشرق الأوسط - علاقته بدولة
المماليك الثانية - موقف السلطنة المملوكية الثانية من الدولة
العثمانية - دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوبية والروادس
حتى سنة ١٤١٢ م - سياسة السلطان برقوق ازاء بلاد
المغرب - برقوق وفرج وامارة مكة - اليمن والسلطنة المملوكية
الثانية - علاقة السلطان برقوق بالحشمة والنوبة وآثارها .

اقرن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة
بين الدول التي تاخمت حدودها الشرقية ، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان
برقوق رغبة في التمتع بحمايته وطلب معونته ، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط
آسيا وغربيها . ولم يتأخر السلطان برقوق في أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه ،
حتى إن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ - سنة ١٣٨٣ م
إلى السلطان برقوق برغبتهم في إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان
برقوق سارع السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً
بنيابة السلطنة في بلده (١) .

والواقع أن خطر التتار في الشرق الأوسط وضحّ في هذه السنة حيث ظهر
تيمورلنك (٢) ، واستولى في سرعة مدهشة على بلاد ماوراء النهر ، وجعل سمرقند
عاصمة لبلاده ، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان (٣) . ثم

(١) راجع المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠١ .

المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤١٦ ، ٤٦٢

(٢) أصله من قبيلة جوركان إحدى فروع قبيلة برلاس للتتارية وهو حفيد قراشور
نويان وزير جقطاي الابن الثاني بلنكي زخان ، أطلق عليه تيمور كوركان ومعناه صهر الملوك ؛
وأصل اسمه « تمر » ثم أضيف إليه « لنك » ومعناه الأعرج لإصابته في فخذه حين كوّن عصابة
لسرقة الأغنام وصار يعرج - وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أراضهم حتى وصل إلى
الملك - راجع ابن عربشاه : فاكهة الخلفاء ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) Sykes : A History Of Persia : VII P.P. 281-202

زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى . ومن هناك أرسل تيمورلنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردین يستدعيه . غير أن حاكم ماردین الذى احتفى بالسلطنة المملوكية الثانية ، أرسل إلى تيمورلنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكى فى هذه الزيارة (١) . وغضب تيمورلنك لهذا الرد . ورغبة منه فى إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمورلنك الكتابة اليه بقوله : « ليس لصاحب مصر بملكك حكم » (٢) ، كما أوضح له أنه لا يهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه . وبرهن لصاحب ماردین على صدق نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير (٣) . ولم ينتظر تيمورلنك رد صاحب ماردین إذ رحل فجأة فى سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها فى غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمورلنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدين له كل ملوك الأرض بالطاعة ، وأن تظهر شخصيته الخيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً ، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه (٤) . ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة ، وأورببطت معها بأواصر الصداقة والتحالف فى الوقت الذى قام فيه تيمورلنك بالتوسع رغبة فى إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته فى العالم المعروف وقتذاك ، جعل وجود هذه الدولة شجاً فى حلقه . على أن اتساع رقعة البلاد التى فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه فى وقت واحد ، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمورلنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م أسرع قرا محمد التركمانى واستعاد بلاده ، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بعودته إلى عرشه وأنه ضرب فى تبريز السكة باسم السلطان ، ودعا له فيها على منابر ، وسأله أن يكون نائباً بها عنه (٥) .

وعلى حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردین لبيعته برسله إلى برقوق ينبئه بما جرى بينه وبين تيمورلنك ، عاد تيمورلنك ، سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م فجأة وهاجم بغداد ، فزاد خوف مجد الدين عيسى ، وأسرع فى إرسال

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٤٣ .

(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة : الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .

(٤) Malcolm : Hist. Of Persia PP 482-483.

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٥ .

الرسول إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع (١) . وبين محمد الدين عيسى في رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمورلنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجللايرى حاكم بغداد (٢) ، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور في مايو سنة ١٣٩٣ م ، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير على بلاده ، وأنه لا يطلب سوى ضرب السكة في بغداد باسمه . فلبس أحمد بن أويس الخلع وطاف بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمورلنك . ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمورلنك يقترب من بغداد ومن غريبها ، وهي الناحية التي لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورلنك بهجومه منها . فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية ، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر (٣) . فتقدم تيمورلنك بحفاله لحصار بغداد سنة ٧٩٥ هـ - يولية سنة ١٣٩٣ م . وبرغم هذا فإن تيمورلنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين ، قتل في أثناءها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها (٤) . ومن بغداد أرسل تيمورلنك ابنه ميران شاه في أثر ابن أويس فأدركه بالحلة (٥) ونهب ماله ، وسبى بعض حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه (٦) ، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه في نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراة ، واتجه غرباً لا تذاً بالسلطان برقوق (٧) .

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفزع لهذه الأخبار التي أنبأها بها صاحب ماردین ، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو السلطان أحمد بن أويس بن حسن بن حسين بن أقبغا بن أيلكان الجللايرى تولى الحكم في بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحت العراق راجع العيني : السيف المهند ص ١٨ - ١٩ .

(٣) Yazdi : Zafarnama VI, P.434.

(٤) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٥) مدينة بين الكوفة وبغداد - راجع ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٢

(٦) Grousset : L'Empire Des Steppes .P, 512

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٣ - بدأت علاقة السلطان أحمد ابن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥ هـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقاش . ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقاته بالود بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨ هـ - راجع المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤١٦ ، وما بعدها .

٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية (١) ، كما أن السلطان برقوق عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له ، فضلاً عن أن تيمورلنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية (٢) . على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته ، حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه ، فكتب السلطان برقوق إلى نعيم أمير آل فضل بإكرامه ، والقيام له بما يليق به . ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس . واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تتم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه . وأنفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار ، فضلاً عن بعثة سلطانية رافقت ابن أويس (٣) . واستقبل السلطان برقوق أحمد بن أويس استقبالاً رائعاً ليردد صدى هذا الاستقبال في بغداد إذ خرج الأمراء للقاءه في ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) ، ونزل السلطان برقوق معهم ومع العسكر إلى الريدانية . وحين قرب أحمد بن أويس من مصطبة السلطان نزل عن فرسه ، ومشى عدة خطوات ، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد ، على حين عانقه كبار الأمراء (٤) . ثم قام السلطان برقوق ومشى نحو عشرين خطوة ، فأسرع ابن أويس نحوه حتى التقيا . ولم يقبل السلطان برقوق أن يقبل ابن أويس يده بل عانقه ، ثم بكيا وسارا متشابكي الذراعين نحو المصطبة السلطانية ، حيث دارت المناقشات في طريقة إعادته إلى عرشه . ونخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس ، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس . وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة في بركة النيل حيث أرسل له السلطان مائتي ألف درهم فضة ، ومائتي قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية (٥) . وكأنما أراد تيمورلنك أن يحدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م إلى القاضي أبي العباس أحمد صاحب قيصرية وتوقات وسيواس ، رسالة سببه فيها وهدده « بقوته التي لا تقاوم » ، وبشره « بالمستقبل المظلم » إن لم يعلن طاعته له . غير أن أبا العباس أحمد الذي تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥ هـ قطع رءوس كبار

(١) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٤ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٤) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ .

(٥) ابن تفرى بردى : للنجوم ج ١٢ ص ٤٦ - ٤٧ .

يرسل تيمورلنك وعلقها في أعناق باقي الرسل ، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقيين إلى السلطان العثماني بايزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما . وسرّ كل من السلطانين برقوق وبايزيد برسالة أبي العباس وما قام به ، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قيصريّة لمقاومة تيمورلنك (١) .

ثم إن تيمورلنك أرسل من بغداد في نفس السنة « أكتوبر سنة ١٣٩٣ م » بعثة إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ سواح ، وزوده بهدايا عديدة وقيمة ، وكتاباً إلى السلطان برقوق (٢) ، وحين وصلت بعثة تيمورلنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية (٣) . أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه في تمكينهم من الدخول إلى البلاد ، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها ممالك وجوار وغير ذلك . فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وإرسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمورلنك . وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذي تعامل به مع ملوك الدول التي قهرها ، إذا اشتملت الهدية على أسرى من أعيان بغداد وقضاتها (٤) . كما أن كتاب تيمورلنك إلى السلطان برقوق اشتمل على نوع من التهديد ، إذ طالب تيمورلنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكي في أسباب الأضرار الجسيمة التي لحقت بملكات المغول من حكام مصر السابقين ، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التي قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت ايلخان بن سعيد سنة ٧٣٦هـ - ١٣٣٥م (٥) ، وطالب كذلك بطرد أحمد الجلايري (٦) . ثم بين تيمورلنك في كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمرقند إلى حدود العراق العربي الملاصقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية . وأن أهالي هذه المنطقة يتمتعون بحمايته ، وعلى السلطان المملوكي أن يرعى حدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل ، وأن يمكن تجارهم من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين (٧) . غير أن الكلام المعسول الذي ورد في نهاية الرسالة لم يعجب السلطان برقوق .

(١) Ibn Arab Shah : Tamerlane, pp. 89-91

(٢) مير خواند : كتاب روضة الصفا ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٣) Bouvet : L'Empire Mongol, p. 49 .

(٤) السلوك ج ٣ خطية ص ٧١٤ .

(٥) راجع الملحق الأول ص ١٦٧ ، وانظر . Browne : Litrary Hist. of Persia, VIII, p. 159.

(٦) Bouvet : OP. Cit. p 49.

(٧) Price : Memoirs, VIII. P 160; Yazdi : Op. Cit. pp.440-441

وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك ، فأمر نائبه بقتل رسل تيمورلنك (١) ، وأعلن عداؤه الصريح له ، فإنه كان على حق في مسلكه مع هذا الداهية الذي لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً .

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ في هذه السنة (سنة ٧٩٥ هـ) بين السلطنة المملوكية الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية في الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذي هددهم جميعاً . يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركماني زعيم قبيلة قره قو يوللو « الشاة السوداء » (٢) اشتبك وقتذاك مع « أطلمش توجين » قائد « قلعة أونيك » (٣) وقريب تيمورلنك . وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذي سجنه بدوره (٤) . وبرغم غضب تيمورلنك من هذا العمل الجريء ومن رد كل من السلطان المملوكي وصاحب قيصرية ، وتحدى كل منهما له ، فضلاً عن تحدى السلطان العثماني له . كذلك ، فإن تيمورلنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونته الآخرين (٥) .

بيد أن تيمورلنك وجد أن بقاءه في بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلعة المثونة بها (٦) . ولذا اتجه نحو الشمال الغربي ليهاجم أعداءه على أفراد قبل أن تتوحد جهودهم . فاستولى في ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ - مارس ١٣٩٤ م على ما ردين بعد حصار قاس ، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى ، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركماني ، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة في شمال شرق البحر الأسود . ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية مكتوفة الأيدي إزاء تحركات تيمورلنك ، بل اصطدمت جيوش نائب حلب ، ونائب ملطية ، بطلائع جيوش تيمورلنك عندالرها . وتمكن جيشا النائيين من هزيمتها وأسر ١١ من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقي التتار (٧) .

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمورلنك ، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش . وعلى حين كانت الاستعدادات لتعبثته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٢) تقع على حدود جورجيا - راجع Grousset : Op. Cit. p 512

(٣) تقع هذه القلعة في كورة باسين في ارزروم - راجع مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٠٤ .

(٤) خواند امير : حبيب السير ج ٣ ص ٥٦ .

(٥) Ibn Arab Shah : Op. Cit. P 94.

(٦) Yazdi : Op. Cit. P 442.

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ٤٨ - ٤٩ .

تيمورلنك (١) . وبدأ تيمورلنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له ، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة ، ثم عذفه على قتله لرسله السابقين ، وأنكر عليه إيواؤه لأحمد بن أويس ، وطالبه بإرساله ورد جوابه (٢) .

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسملة ، ثم أخذ في نقد ما جاء في كتاب تيمورلنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمورلنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء ، وأنه لن يعلن طاعته إلا « لأمر المؤمنين وخليفة رب العالمين » (٣) .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمورلنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام (٤) . ونظراً لأن منطاش ترك خزائن الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات (٥) ، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بخزانة شمائل (٦) ، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذي سار « في أبهج زي وأفخر هيئة وأحسن ملبس ، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة » (٧) . وسار السلطان في ربيع الثاني سنة ٧٩٦ هـ - أبريل سنة ١٣٩٤ م على رأس هذا الجيش الضخم ، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه .

ويبدو أن تيمورلنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول في معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده ، فاضطر إلى الاشتباك معه ، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه (٨) .

(١) راجع نص الكتاب بالملحق رقم ٢ ص ١٦٨-١٦٩ .

(٢) راجع المقرئى : السلوك ج ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٦٥ - ٦٦ .

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٦٦ - ٦٧ - راجع نص الخطاب بالملحق رقم ٣ ص ١٧٠ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٢٤ .

(٥) البينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٨ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٨) المزوى : تاريخ العراق ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمورلنك فإنه استمر يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ - مايو ١٣٩٤ م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمورلنك (١). وفي دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى، إذ أن رسل طقتمش، الذي تقهقر أمام تيمورلنك إلى حدود بلاده، قدموا بعرضون معاونة طقتمش للسلطان ورغبتهم في عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمورلنك (٢). كما أرسل السلطان العثماني بايزيد رسله يعرض رغبته في محاربة السلطان برقوق في حربه مع تيمورلنك (٣). ورد السلطان برقوق على كل منهما رده بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتاري (٤)، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط.

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بناية السلطنة (٥) ببغداد، وزوده «بالأمراء والمماليك والخيال والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه» (٦). ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد في أواخر جمادى الثاني سنة ٧٩٦ هـ - يونية سنة ١٣٩٤ م فتمكن أحمد بن أويس بهذا الجيش المملوكي وبمعاونة قرايوسف التركماني من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد. وأخذ في بناء سورها وتعميرها (٧).

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها، ولو على هذه الصورة الشكلية التي أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قبل السلطان برقوق فيها، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق. ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثماني بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتي ألف مقاتل لعونه على حرب

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٦ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٤) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٧ .

(٥) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٧٣١ .

(٦) العسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٧١ .

(٧) البغدادي : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨ ، ذكر العسقلاني في إنباء الغمر أن الأمير

العربي نعيم أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها، غير أن باقي المصادر أجمعت على أن أحمد بن أويس، بمعاونة الجيش المملوكي، طرد ابن تيمورلنك من بغداد واستولى عليها .

تيمورلنك ، كما قدم حكام الإمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون [طاعتهم للسلطان برقوق (١) :

غير أن السلطان برقوق الذي أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد ، دون أن يهمل مراقبة حركات تيمورلنك ، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سوريه وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها (٢) .

بيد أن تيمورلنك رغم انشغاله في غزواته لقلعة تكريت في ربيع الأول سنة ٧٩٧ هـ - فبراير سنة ١٣٩٥ م ، وروسيا في ربيع الثاني من السنة نفسها ، والهند سنة ٧٩٩ هـ وسنة ٨٠٠ هـ - سنة ١٣٩٨ م (٣) واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط ، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية ، إذ أرسل في ديسمبر سنة ١٣٩٨ م رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش . وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإبقائهم وإرسال الكتب التي معهم إلى مصر ؛ ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلى تيمورلنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه « من الخير والإحسان بالديار المصرية (٤) » . وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذي تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمورلنك إلا إذا أطلق تيمورلنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق (٥) .

ومهما يكن من شيء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمورلنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلتته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضي أبي العباس أحمد صاحب قيسرية ، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما .

وأظهر تيمورلنك سروره لهذه الأنباء (٦) . واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج ، وبدأ تيمورلنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ (خطية) ص ٧٣٣ ، ص ٧٤٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ (خطية) ص ٣٣ .

(٣) Browne : Op. Cit. P 193.

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٤٥٢ .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٤ .

(٦) Ibn Arab Shah : Tamerlane P. 100

أن يتمكن السلطان المملوكى الجديد من ترتيب أموره ، أو محاولة الاتصال بالدول المجاورة ، وعلى الأخص الدولة العثمانية التى حمل تيمورلنك لها أشد الكراهية ؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان ، الذين سبق أن احتموا بتيمورلنك (١) .

وفى صفر سنة ٨٠٢ هـ - يولييه سنة ١٣٩٩ م غادر تيمورلنك الهند ، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التى أزمع غزوها (٢) . ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات ، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه برقة ألايساعد قرايوسف التركمانى أو أحمد بن أويس ، وأن يقف محايداً فى هذه الحرب القادمة معهما ، كما وقف هو محايداً فى حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦ م (٣) ، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التى طلبت أن تكون فى حمايته ، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمورلنك ، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه : وليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم . ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب (٤) .

وأدرك تيمورلنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره ، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال فى بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده. فتقدم تيمورلنك فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢ هـ - ديسمبر سنة ١٣٩٩ م ، واستولى على بغداد للمرة الثانية . أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرايوسف التركمانى فإنهما اتجها غرباً لاثنين بالسلطان المملوكى حتى أشرفا على حلب ، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب فى نزولهما لديه ، غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما فى حلب فى نحو سبعة آلاف من فرسانهما (٥) فقاتلتهما بمعاونة عساكر دقماق نائب حماة . ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأسر بمائة ألف درهم (٦) ، وكتب ابن أويس وقرايوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاصطدام بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما ، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتهما ، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهما إلى إهمال كتب أحمد بن أويس.

(١) دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) Lamb : La Vie De Tamerlane p. 204

(٣) حرب نيقوبوليس ، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149—150

(٤) Ibid p. 150

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركمانى ، ومناصبتهما العدا . وبدلاً من الاستعانة بقواتهما فى هذه الظروف الحرجة ، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده فى سياسة الحرص على تزعم العالم الإسلامى والحرص على وحدته ، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيره لقتالهما ، فاضطرا إلى الالتجاء إلى السلطان بايزيد الذى أكرمهما ، وعقد معهما محالفة مما أثار حفيظة تيمورلنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية (١) .

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائبها أمير مصطفى تابع لابن عثمان (٢) . وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد فى سنة ٨٠٣ هـ — يولييه سنة ١٤٠٠ م وحمل تيمورلنك على الجيوش العثمانية وهزمها ، وفر سليمان إلى أبيه فى مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركمانى ، وأخذ تيمورلنك مدينة سيواس ، « وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها » (٣) .

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمرء الدولة المملوكية الثانية فى هذا الوقت بالذات ، ولو لم يحدث لغير مجرى الحوادث ، ذلك أن السلطان العثمانى بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكى فرج لإمكان الوقوف فى وجه الخطر التيمورى ، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثمانى بسبب تحركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ . وبين ابن تغرى بردى خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة ، وأوضح أهميتها آنذاك فى قوله إن الدراية الحربية التى كانت تنقص الجيش المملوكى كان يمكن تعويضها من ناحية الجيش العثمانى فى فنون الحرب ، فى حين أن قلة عدد عساكر « ابن عثمان » يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية (٤) .

وكيفما كان الأمر ، فقد تقدم تيمورلنك وزحف على ملطية فى ٢٥ المحرم سنة ٨٠٣ هـ — أكتوبر سنة ١٤٠٠ م وأبادها على عادته (٥) . ومن هناك أرسل تيمورلنك كتابه الأول إلى السلطان فرج . وفى هذا الكتاب فند تيمورلنك للسلطان فرج أخطاء أبيه ، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك ، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه ، وأنه سيصيب انتقامه على الشعبين السورى والمصرى إن لم يجبه إلى مطالبه (٦) .

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ .

(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢١٧ .

(٥) Ibn Arab shah : Tamerlone p. 116

(٦) Yazdi : Op. Cit VII p. 159 انظر الملحق رقم ٤ ص ١٧٢ .

«و حين وصل رسل تيمورلنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائباها — كالعادة — ليخبر السلطان أولا بمجيئهم. غير أن فرج ، جرياً على تقاليد والده ، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم في السجن . وأضاف . هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليلاً آخر على جهله وأمرائه . بأمور السياسة في هذا الوقت الذي تخرج فيه الموقف على حدود سورية . وحين عرف تيمورلنك هذا الأمر تحركت فيه مكان الغيظ والرغبة في الانتقام مما فعله بقوق وابنه ، فرج في رسله ؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثماني والزحف أولاً على بلاد السلطنة المملوكية الثانية لبيد كل ما فيها بالنار والسلاح (١) .

زحف تيمورلنك في رجب سنة ٨٠٣ هـ — نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على البهسنا (٢) . التي أعد نائباها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها ، غير أنه حين وجد ضخامة جيش تيمورلنك تملكه الدعر ، وأرسل إلى تيمورلنك يعرض رغبته في التسليم مع الاعتراف بهجزه وحاجته لمعونة تيمورلنك ، فأجابه تيمورلنك لما أراد وأحسن استقباله ، وفي الحال سكت نقود جديدة باسم تيمورلنك ، ودُعِيَ له في خطبة الجمعة بهذه المدينة (٣) . وبعد أن استولى تيمورلنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة ، زحف إلى عينتاب شمال حلب . وعلى الرغم من أن عينتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سلمت إليه ، وفتحت أبوابها ، فعين تيمورلنك عليها نائباً من قبله ، وفر نائب عينتاب إلى حلب (٤) .

والعجيب أنه على حين تحقق الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في سورية من زحف تيمورلنك يزداد تنافس الأمراء في مصر على النفوذ ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك (٥) . وتحت الظروف الاقتصادية والصحية السيئة التي أحاطت بالدولة ، اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار للمعاونة في نفقة العساكر . ولم يكن في وسع القضاة الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم لقتال تيمورلنك (٦) .

وتحارب تيمورلنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثماني ، وأنه بقدمه إلى مصر أراد أن

(١) Ibid : p. 160

(٢) البهسنا قلعة عجيبة بغرب مرعش وسميساط وهي من أعمال حلب . انظر مراصد

الاطلاع ج ١ ص ٨٣ .

(٣) Ibid : p.p. 163—164

(٤) Ibid p.p. 164—165

(٥) Grousset : Op, Cit. p. 527

(٦) المقریزی : السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣ .

تُضرب السكة باسمه ، وأن يذكر اسمه في الخطبة ، ثم يرجع بعد أن يقر في مصر سلطاناً يرضى عنه ، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه (١) .. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسّط (٢) .

ولإزاء هذا التحدى الصارخ من نائب دمشق ، زحف تيمورلنك على حلب التي اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل في أول ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (إحدى قرى حلب) (٣) ، فتصدى له الأمير شيخ الحمودى.. نائب طرابلس ، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمورلنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضعفاً، وتكون من أحسن المحاربين، وزود بأسلحة كافية لصمد أى هجوم (٤) . غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثير من الفرص وعرض سورية للضياع ، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة في حلب ، وعرض عليهم خطورة الموقف ، وقوة تيمورلنك ودهاءه ونصحهم بضرورة التعاون بينهم جميعاً ، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ في هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها للقاء تيمورلنك ، ووضع خطة ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمورلنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحي (٥) . غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء . ومع أن نواب سورية في عهد برقوق أسهموا بقسط كبير في صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية ، فإنه من الخجل أن يختلف الأمراء وقتذاك في سورية على الزعامة في هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف أمراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة (٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد عمد تيمورلنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء ، فأرسل إلى دمرداش الحمودى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون. نائب دمشق ، وجاء في كتاب تيمورلنك إلى دمرداش نائب حلب « إنا لما وصلنا في العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة .. فلما وصلنا إلى

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .

(٢) العيى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ١٢٤ .

(٣) راجع الأنصارى : نخبة الدهر ص ٢٠٥ .

(٤) Yazdi : Op. Cit. VII p. 161

(٥) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٨٦ .

(٦) نفس المرجع ص ٨٧ .

«العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد ، فتوجهنا إليهم ، فأظفروا الله بهم ، ثم رجعنا إلى الكرج ، فأظفروا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، فشفغلنا بسيواس ، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا في الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها ، ... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا ، قريتنا أظلمش ، وإن لم تفعلوا ، فدماء المسلمين في أعناقكم والسلام (١) » .

ونشر تيمورلنك بوساطة رسله وجواسيسه الذين انتشروا بين العساكر أن «دمرداش كاتبه لاحتلال حلب (٢) . غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمورلنك ودهاءه ، بل على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان . على أنه مما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع ، بدليل أن «دمرداش حين رأى مطاولة تيمورلنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور ، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو ، وغضب دمرداش وبراؤه بجانبه بقتل رسول تيمورلنك ، واحتفظ برأيه لنفسه (٣) .

وعلى حين أخذ النواب في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمورلنك على قرية جيلان ، خارج حلب في ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠ م) . ثم تقدم لحصار حلب . وبرغم هذا الانقسام الذي ساد الأمراء بسبب خطة القتال ، فإن أهل حلب استماتوا في الدفاع عن مدينتهم ، وركبوا أسوار المدينة ، وقاتلوا تيمورلنك أشد قتال ، مما أخرج النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة ، ورتبوا عساكرهم فوقف سودون نائب دمشق في الميمنة ، ووقف دمرداش نائب حلب في الميسرة وكون عساكر النواب الآخرين قلب الجيش . غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهر حين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها ، وصبيانها ، في مقدمة الجيش مما سهل على تيمورلنك اكتساحهم (٤) . ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمورلنك لهم بجيوشه وفيلته ، ففروا قاصدين داخل حلب رغبة في الاحتماء بأسوارها (٥) . فتتبعهم جيش تيمورلنك وهاجم المدينة بكل قواته التي قومت بنحو ثمانمائة ألف

(١) ابن قاضي شهبه : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢١ .

(٣) Yazdi : Op. Cit. II p. 168

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٣ .

(٥) Price : Memoirs VIII p. 330

جندى (١) ، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر مالا يدخل تحت حصر . وتناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضاً «حتى صارت الرمم طول قامة» (٢) . ولجأ تيمورلنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب ، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهن وربطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف . ثم «صارت الأبيكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام» وبذل عساكر تيمورلنك السيف في عامة حلب وأجنادها ، حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى (٣) .

ومع أن القتال استمر أربعة أيام ، فإن تيمورلنك لم يستطع الاستيلاء على قلعة حلب (٤) ، التي نقل إليها الناس أموالهم ، والتي كافح فيها سودون ودمرداش كفاحاً مريراً ، حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة . ولكنهم بعد أن اطمأنوا إليه أمر بحبسهم ، ثم سيق إليه من بقي من نساء حلب سبايا ، وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه ، أباح النهب والسلب والقتل لغيره من أهل حلب ، ثم أمر بقطع الأشجار ، وهدم البيوت ، وإحراق المساجد حتى «جافت حلب وظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لا يجد الشخص مكاناً يمشى عليه إلا وتحت رجله رمة» (٥) . وتسلى تيمورلنك برءوس القتلى «فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً» (٦) . وقبض تيمورلنك على سودون ودمرداش ، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبه وباقي الأسرى . ولكن السلطان فرج وأمرأه كانوا في واد آخر .

وينعى ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعزووها إلى سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم في وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى فقدت بقيتهم الثقة في قدرتهم على الدفاع عن المدينة . أما العسقلاني فيرى أن غباء

(١) Thoumin : Hist. De Sryie p. 245

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٣ .

(٤) تسمى هذه القلعة الشهباء لبياض حجرها - راجع الأنصارى : نجدة الدهر ص ٢٠٢ .

(٥) القرمانى : أخبار الدول ص ٢٠٨ .

(٦) Yazdi : Op. Cit. VIII p. 176

دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكي خارج حلب ، إذ أن دمرداش أثار الفتنة بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعيم أمير آل فضل ، فغضب نعيم من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك ، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التي لم يكن يستهان بها في مثل هذا الظرف (١) .

وبعد أن أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها مظلمة بآثار الحريق ، وسار قاصداً دمشق ، ومر ابنه ميران شاه بمدينة حماه وحمص واستولى عليهما ، وقام بنفس الدور الذي قام به والده في حلب (٢) . ثم احتل تيمورلنك بعلبك التي دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها (٣) .

وأما أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها ، وأنه في طريقه إليهم ، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها (٤) . وتحمس المخلصون منهم في الدفاع عن مدينتهم ونادوا في الناس بأن « من سافر نهب (٥) » وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو ، وهكذا بدأ الناس في تحصين المدينة ونصبوا المجانيق على قلعتها ، والمكاحل على أسوارها .

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميماً رائعاً وإيماناً قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان ، وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الحديد وهم النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحاً (٦) .

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضاع الكثير من الفرص لإبعاد الخطر. التيموري ، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامي لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك الذي تمكن عساكره في مشاهد البلاد التي احتلها في سورية ومزاراتها ومدارسها. ودور الحديث بها والرباطات والجوامع والمساجد ومواطن العبادات وأطلقوا فيها النيران. وأهانوا المصاحف وكتب العلم والحديث ورموها في الطريق (٧) . ولهذا لم يكده الشيخ عمر البلقيني والقضاة يركبون وينادون في الناس « بالجهاد في سبيل الله تعالى .

(١) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣١ .

(٢) السلاوي : مختصر التواريخ ورقة ٩٠ ب .

(٣) Yazdi : Zafarnama II p. 180

(٤) ابن عرب شاه : عجائب المقدور ص ٩٥ .

(٥) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(٦) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ .

(٧) البسطامي : مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار ورقة ١١٦ ب ، ١١٧ أ .

لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والجوامع والمساجد، وجعلها اصطبلات للدواب، وأنه قاصدكم تخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم^(١) ويسبي حريمكم^(٢)، لم يكذب ينادى هؤلاء بهذا النداء حتى انطلقت السنة الناس بالوقعة بأعيان الدولة، مما دفع الأمراء إلى سرعة تعبئة الجيش والاتجاه بالسلطان إلى سورية وذلك في ٢٠ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ - ديسمبر سنة ١٤٠٠ م^(٣).

ومن العجيب ألا يتقدم الجيش بسرعة لإنقاذ دمشق بل إن السلطان والأمراء حين وصلوا إلى غزة أقاموا بها أربعة أيام انتظاراً لأخبار جديدة^(٤). وهناك عرض الأمير تغرى بردى - الذي عين أخيراً نائباً لدمشق - خطة لمواجهة تيمورلنك خلاصتها أن يبقى السلطان في غزة بعساكره ويتوجه تغرى بردى إلى دمشق ليحرض أهلها على القتال، في وقت تمتاز دمشق بحصانتها، ووجود مئونة بها تكفي مدة طويلة لا يستطيع تيمور معها بعساكره الكثيرة الوقوف أمامها؛ فلما أن يدع دمشق ويتوجه نحو السلطان إلى غزة فيتوغل في البلاد ويصير بين عسكرين، ولما أن يعود إلى بلاده منهزماً لقلّة ما في طريقه من المؤن بسبب خراب البلاد التي مرّ بها، وهنا يتمكن السلطان من تتبع أثرهم وهزيمتهم^(٥).

غير أن الأمراء لم يطمئنوا لخطة تغرى بردى؛ ولعل هذا لأنه كان رومياً، ولم يستطع السلطان بدوره السيطرة على الموقف بسبب ضعف شخصيته وكثرة الآراء، فانقسم جيش السلطان إلى قوات مختلفة اتجهت كل منها في ناحية دون خطة موضوعة^(٦).
و على الرغم من وصول السلطان فرج إلى دمشق في ٦ جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ يناير ١٤٠١ م فإن الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمرداش نائب حلب، الذي تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش في حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً في الجراكسة، وأنه لو ثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك^(٦).

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق

(١) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٣ ورقة ١٧٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) Fischel : Ibn Khaldun And Tamerlane

(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٥) Ibn Arab Shah : Op. Cit. p 115

(٦) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ - ١٧٥

الذين أخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته . وعسكر فرج بجيشه في سهل قبة يلبغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق ؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة - إحدى قرى دمشق - ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي . وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة (١) . وفي المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكي ، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبדתه خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السلطان فرج مرة أخرى في طلب الصلح على أساس إطلاق أطلمش ، وسك النقود باسمه ، وذكر اسمه في الخطبة (٢) . واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك في هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين . وبعد عرض عسكري كبير أمام رسول تيمورلنك ، أعيد الرسول محملاً بالهدايا ومعه رسول السلطان فرج حاملاً رده على كتاب تيمورلنك الثاني ، الذي وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطلمش في ظرف خمسة أيام ، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا (٣) .

ولم يكذ تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف ، فزحف على غوطة دمشق (٤) بعد ذلك بعشرة أيام ، فسلمت له دون قتال . وعقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة ، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي ، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط (٥) . وعاود الأمير تغرى بردى النصيح في ضرورة قبول الصلح في هذه الظروف الحرجة ، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة . فكتب السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذي قام به بعض الأمراء في الليلة السابقة ١٩ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ - سنة ١٤٠١ م ، وأنه سيطلق من عنده في اليوم التالي . غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً ، ولا سيما أن عيون تيمورلنك أوقفوه على

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٣٦٧ .

(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184 انظر الملحق رقم (٥) ص ١٧٣

(٣) شرف الدين علي يزدي : طفرامة ج ٢ ص ٣١٧ - انظر الملحق رقم (٦) ص ١٧٤

(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفي أطرافه جبال عالية وترويه

عدة أنهار راجع Le Strange : Palestine p. 33

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٥ .

«حقيقة الحال في داخل دمشق مما جعله يرقص موافقة السلطان فرج ، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة (١) .

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل في النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه ، ومن المماليك السلطانية ، وتبعتهم جماعة أخرى ، وهرب الجميع إلى القاهرة ليلطنونوا الشيخ لاجين البحر كسي ؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج وتبعهم لمواجهة هذه الفتنة ، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيمنور ، وذلك في ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (٢) .

وعرف تيمنور لك هذه الحقيقة فنشر الدعر في صفوف الجيش المملوكي حين قبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا النبأ ، كما أضرم نارا في أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكي أن عساكره ملئوا جميع نواحي المدينة بقدر أماكن النار (٣) .

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ - يناير سنة ١٤٠١ م - أدى إلى تسلل يقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم ، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمنور لك لهم (٤) . وتتابع دخول الفارين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة ، وهم في أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له في الطريق من الجوع والعري (٥) .

أما العساكر الذين بقوا في داخل دمشق فلأنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم ، فلأنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها ، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال دون أن يعلموا برحيل السلطان (٦) . ولكن تيمنور لك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حيث علم برحيل السلطان . غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال ، حتى ردوه بعيداً عن السور والحمدق وأسروا عدداً كبيراً من جنده ، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف (٧) . وإزاء

(١) Yazdi : Op. Cit. p. p. 191—192 انظر الملحق رقم (٧) ص ١٧٥

(٢) Ibn Arab Shah : Op. Cit p. 141

(٣) دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٥٩ ..

(٤) ابن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٥٢ .

(٥) المسقلاني : إنباء النمر ج ١ ص ٥٣٣ ..

(٦) Ibn Arab Shah : Op. Cit. p. 141

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٨ .

تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمورلنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح ، ونجح في هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلي للمفاوضة على رأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم (١) .

وحين اجتمعت البعثة بتيمورلنك عرض عليهم تيمورلنك أنه لا يريد سوى أن يخرج إليه أهل دمشق «الطغزات» (٢) . ثم يعود ، وخدع ابن مفلح بكلام تيمورلنك وعاد ليثني عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال (٣) . وعلى الرغم من أن بعض الأمراء في قلعة دمشق حاولوا جاهدين منع ابن مفلح من نشر رأيه ، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل . فضلاً عن أن أكثر الأهالي حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمم الواقع .

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج «الطغزات» من باب النصر منعه نائب القلعة ، وهدد بإحراق المدينة . فأخرجوا الطغزات من السور ، واتجهوا إلى معسكر تيمورلنك الذي رحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق (٤) . وحين قرى الأمان بالجامع الأموي فتح الباب الصغير (باب المدينة القبلي) ، ثم طمأن تيمورلنك الناس حين بعث بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية ، وطلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق (٥) .

وانتقم تيمورلنك من المدينة أبشع انتقام ، فلم يكتف بأخذه ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق ، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافي المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش ، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها (٦) . وبعد أن قسم

(١) Fischel : Op. Cit. p. p. 33—34

(٢) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسعة» ويسمون ذلك «طغزات» والطقز باللغة التترية معناه تسعة . راجع ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٩ .

(٣) القرمانى أخبار الدول ص ٢٠٩ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٦٤ .

(٦) المقرئى : السلوك ج ٣ مجلد ١ (مصورة) ورقة ٣٧ .

المدينة على أمرائه ، ونزل كل أمير بقسمته ، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين ، وغم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم ، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهرق ، وإذا أشرف على الهلاك ، يخلي عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً . وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك ؛ فيشاهد الرجل المعبد امرأته أو ابنته وهي توطأ ، وولده وهو يلاط به ، ويصرخ هو من ألم العذاب ، والبت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط . وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس ... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب ، إذ أخذ التتار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال يكتفي الرجل ، وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه . واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣ هـ - فبراير سنة ١٤٠١ م بعد أن هلك في هذه المدة من أهل دمشق خلق كثير (١) .

وحين عزم تيمورلنك على ترك دمشق ذلك معالم الحضارة فيها ، وأشعل النار بها في يوم عاصف ، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام ، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموي وزالت أبوابه (٢) . وفنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها . وبوالخلاصة أن تيمورلنك ترك دمشق أطلالاً بالية ، وفيها أطفالها معرضين للجوع والموت ، وأخذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته (٣) .

على أن غزرو تيمورلنك لسورية تمخضت عنه عدة نتائج ، أولها ما أصاب مدن سورية بوقراها من نقص في السكان ، فضلاً عما أصابها من الحراب ؛ حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة في إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمورلنك (٤) ؛ وثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج (٥) . وثمة

(١) تنفس المبرجع والجزء والورقة .

(٢) ذكر على شرف الدين يزدي أن سقوف الجامع الأموي احترقت مصادفة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تعمد إحراقها وأيد هذا الرأي شاهد عيان هو الرحالة البافاري Schiltbeger الذي ذكر أنه بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور

فيه النار - راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23

(٣) Hitti : Hist. of The Arabs p. 701

(٤) راجع آيين الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢ ، ٥٧ .

(٥) Huart : Hist. Des Arabes T.II p. 94

نتيجة ثالثة لغزو تيمورلنك لسورية هو نشاط طوق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار في طرق وسط آسيا وغربها (١) .

أما صدى غزوة تيمورلنك لسورية في القاهرة فإنه دوى عند عودة السلطان فرج بجيشه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة ، إذ ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له ، ومالبث أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته ، فانتشر الرعب بين الناس ، وزاد سوء الأحوال الاقتصادية « لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمورلنك على القاهرة » (٢) . وعلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشاً لشدة الحاجة إليها ، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها . ومما زاد الحال سوءاً أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمورلنك ، وفرض على سائر أراضي مصر وأوقافها ضرائب كثيرة ، ثم عاد فجئياً من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً ، وأخذ يلغا السالى استاداره يهاجم الفنادق والحواصل في الليل ، فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه ، وأخذ نصف ما يجده فيها ، وإذا لم يجد صاحب المال ، أخذ جميع ما يجده ، كما استولى على ما وجد من حواصل الأوقاف (٣) . وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لا يستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض (٤) .

على أن تيمورلنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني . على أننا نلاحظ من حركات تيمورلنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه ، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة في أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له . ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكي ودك معالم الحضارة في سورية ، اتجه إلى الشمال ليفاجئ "بايزيد قبل أن يفاجئه . ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع ، إذ وجد تيمورلنك السلطان بايزيد يقظاً لحركاته ، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد (٥) . ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثماني ، فأرسل تيمورلنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له ، وأن أى تعد على أملاكه

(١) Ibid : p. 115

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ١٨٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) ابن قاضى شهبه : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٦٥ .

يعتبر تعدياً على أملاكه هو (١) . ثم بعث تيمورلنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرأ يوسف التركماني اللذين احتميا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه. وإذا أصبح الجيش العثماني قوة لا يستهان بها خاصة بعد انتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ م فإن بايزيد تحدى تيمورلنك ورد عليه رداً خشناً مادفع تيمورلنك إلى الإغارة عليه في سبعمائة ألف فارس وثلثمائة ألف من المشاة وذلك في سنة ٨٠٥ هـ - يولييه سنة ١٤٠٢ (٢) .

وحين وصل تيمورلنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه أمانويل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية ، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من المشاة والفرسان . كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحرب (٣) . ولم ينتظر تيمورلنك مساعدة هذا أو ذاك كما أنه لا يوجد ما يشير إلى عقد محالفة مع الغرب ، بل تذكر المصادر أن تيمورلنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد ، واستخدام الحيلة في سيره عبر الجبال إلى أنقرة في طريق غير الطريق التي توقع بايزيد أن يسير فيها تيمورلنك (٤) ، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة ، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده ، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جمحافل تيمورلنك (٥) . ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه في أسر تيمورلنك (٦) . وصار يبدو أن الإمبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية ، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التي استولى عليها العثمانيون (٧) .

ولانتصار تيمورلنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية - وهما القوتان اللتان

(١) De Clavija : Op. Cit p. 73—74

(٢) . المقرئى : السلوك ج ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦ .

(٣) De Clavijo : Op. Cit. pp. 76—77

(٤) Ibid. pp. 76—77

(٥) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ - ٥١ .

(٦) نشرت بعض المراجع قصة حبس بايزيد في قفص حديدى وأصبحت هذه القصة غير

مقبولة الآن إذ لا يوجد في المراجع الفارسية ما يشير إلى هذا بل على العكس تشير إلى إكرام

تيمورلنك لبازيد ويرى Gibbons أن الذى دعا بعض المؤرخين إلى ذكر هذه القصة

ماورد في عجائب المقدور لابن عربشاه قوله « وقع ابن عثمان في قنص ، وصار مقيدا كالطير في

قفص » راجع خواندмир : حبيب السير ج ٣ ص ٦٠ .

(٧) Gibbons : Foundation of the Ottoman

Empire, p: 225

Oman : The Byzantine Empire, p 334

حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامي آنئذ - أثر كبير في محاولة الغرب النيل منهما، وذلك حين أرسل هنري الثالث ملك أسبانيا في يولييه سنة ١٤٠٢ م سفارة سياسية مكونة من *Pelayo De Satomayor* ، *Fernando De Palazuelos* لدعم علاقات بلاده مع تيمورلنك . وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة ، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضي ، وحمله خطاباً ودياً وهدايا من جملتها جواهر وجوار إلى هنري الثالث . وشجع هذا الوداد هنري الثالث على محاولة الارتباط بأي نوع من التحالف مع تيمورلنك فأرسل في ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣ م بعثة أخرى برئاسة *De Clavijo* (١) .

غير أنه برغم إكرام تيمورلنك لهذه البعثة فإنه لا يوجد ما يشير إلى أي تحالف رسمي بين الشرق والغرب . ويبدو أن السبب هو مرض تيمورلنك في اليوم التالي لوصول *De Clavijo* فلم تتمكن البعثة من مقابلة تيمورلنك مرة أخرى (٢) .

على أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمورلنك على الدولة العثمانية ثم انسحابه في نوفمبر سنة ١٤٠٢ م ، وهي ضياع أرمينية من أيدي السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء ، والشاة البيضاء ، (قراقويونلو ، آق قويونلو) (٣) .

وفي طريق تيمورلنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنبأه فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطمش ، وأنه إذا قدم عليه ، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين . وأما إذا امتنع السلطان فرج عن تنفيذ مطالبه ، فإنه سيعود إلى تخريب مصر (٤) . وحسباً للموقف طلب السلطان فرج أطمش من سجنه بالقلعة ، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطمش عليه أن يكون عيناً له عما يحدث من أمور تيمورلنك فضلاً عن إشادته بما للسلطان فرج ولوالده من أفضال عليه (٥) . فخلع عليه السلطان فرج

(١) *De Clavijo pp. 76—77* هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره في أنقره إلى هنري الرابع ملك إنجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجاري مع بلاده ، ورد هنري الرابع عليه بالتهنته بانتصاره على العثمانيين وأصول هذين الخطابين موجود في *Vide Original Letters Illustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis PP 56—58.*

(٢) صادف وصول بعثة *De Clavijo* وصول بعثة من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومعها هدايا - راجع *Le Strange : Clavijo Embassy To Tamerlane pp. 9—12*

(٣) *Kevork : Armenia p. 101*

(٤) ميرخواند : روضة الصفا ج ٦ ص ٢٤٦ انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٨ من ١٧٥ .

(٥) ابن قاضي شهاب . ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢٠٤ .

وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم وأطلقه مصحوباً ببعثة من أمرائه (١) .

وهكذا تم الصلح المهيمن بين السلطان فرج وبين تيمورلنك . ولوقدر للبلاد سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ويحالف السلطان العثماني وغيره من أمراء الشرق الذين فاوضوا السلطان فرج في أمر تيمورلنك قبل انهيار جمهرة جيوشه على بلادهم ، ولو نظم الأمراء قواتهم وانفقوا في هذه الظروف الحرجة لأمنت البلاد عادية تيمورلنك ، بيد أنه لم يكن بمصر رجل سياسى بعيد الغور في السياسة مثل السلطان برقوق ، بل أصبح الحكم للمماليك الطبقة الثانية « القرانيس » من عماله ، ولمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون البلاد بسبب جهلهم إلى الخراب . والواقع كذلك أنه لو بقي السلطان فرج في دمشق مدة أخرى لرحل تيمورلنك إلى بلاده بسبب قلة مئونته .

ولم تقف علاقات تيمورلنك بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل إن تيمورلنك حين استقبل أطلمش في المحرم سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج ، وعرض فيه تيمورلنك رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية ، فشكر الأمراء على إرسال أطلمش ، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج ، إذ أرسل إليه هدية اشتملت على علمين لونهما أخضر وخلعة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج نائبه على الديار المصرية والشامية . ونتج عن هذه الإساءة إلى السلطان فرج أنه حين عرضت عليه الهدية أمر رسل تيمورلنك بالنزول في دار الضيافة دون أن يخلع عليهم ، ومنع الناس من الدخول إليهم ، ثم بعد أيام أعلن رفض قبول هدية تيمورلنك ، وأعاد رسله إليه على هذه الصورة من الاحتقار (٢) .

ولم يفتأ تيمورلنك يظهر عدم تقديره للسلطان فرج إذ أرسل إليه في ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذى عينه تيمورلنك حاكماً على بغداد من قبله . وذكر تيمورلنك في خطابه أنه أرسل إليهما ولده ميران شاه في مائة ألف فارس فهربا منه . وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين الفارين ، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه (٣) .

وليس أدل على ضعف فرج من أنه حين قبض نائب دمشق على أحمد بن أويس وقرا يوسف ؛ كتب السلطان فرج خطاباً لتيمورلنك بأن الاثنين تحت طلبه ، ثم بدأ

(١) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٥٣٨ .

(٢) انظر المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٦٠٤ ، ٦٢٨ .

(٣) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ٢١٣ .

السلطان فرج وتيمورلنك يتبادلان الهدايا كما أن تيمورلنك قبل أن تدركه المنية آخر سنة ٨٠٧ هـ - يناير سنة ١٤٠٥ م أرسل إلى السلطان فرج عدة هدايا واعتذر له عن اضطرابه إلى اكتساح بلاده (١) .

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلى الذى تمثل فى إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة ، فإن العامل الخارجى الذى تمثل فى غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى ؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة فى وقت الحروب حتى انتصرت على المغول فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٧ م ، وفى مرج الصفر فى رمضان سنة ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ م ، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبية سبب هزيمتها أمام التتار . وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص فى حملات كسبت نصراً مؤزراً وضع حداً للأخطار التى تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة (٢) .

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامى . وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودهما متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين الهدايا مع صاحبه (٣) . ثم زاد فى أواصر هذه الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر . وكانت الدولة العثمانية البادئة بالسعى لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة المماليك الثانية ، لتعارض مصالح العثمانيين مع التيموريين فى السيطرة على آسيا (٤) . والبداية التاريخية لهذا الاتصال هى سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثمانى رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق ، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين ، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لردده (٥) . وبلغ من ثقة السلطان برقوق فى نفسه وبعد نظره أنه لم يرتبط بتحالف مع السلطان العثمانى ، وإنما أظهر استعدادة لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثمانى . وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته فى الوقت .

(١) نفس المرجع . الجزء ورقة ٢١٧ .

(٢) راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع .

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩ .

(٤) Malet Et Isaac : l'Hist. Du XIV and XV and XVI siècles, P. 210.

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ ب .

الذى لم يكثر فيه بخطر تيمورلنك بدليل قوله «إني لا أخاف من اللنك فإن كل أحدي ساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان» (١) . ويبدو أن برقوق كان على حق في اعتقاده هذا لأن يازيد أغار سنة ٧٩٣ هـ — سنة ١٣٩١ م على قيصرية وقبض على صاحبها وهى وقتذاك في حماية السلطان برقوق . غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦ هـ — سنة ١٣٩٤ م جعل يازيد يبعث باعتذاره إلى برقوق وهو في سورية كما أرسل مفاتيح المدينة وهدية قيّمة (٢) . ولم يتأخر السلطان برقوق في قبول الاعتذار ، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكنى إلى يازيد ، وعقد الصلح بينه وبين صاحب قيصرية (٣) . ووجد السلطان يازيد في صداقة السلطان المملوكى خير معين له على دفع الخطر التيمورى . فرد في نفس السنة ٧٩٦ هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليلة وكتاب حذر فيه السلطان برقوق من خطر تيمورلنك ، وأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس ، كما سأل السلطان برقوق في تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداويه (٤) . غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثمانى وإكرام رسله ثم أرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير ، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان (٥) .

وفي أواخر سنة ٧٩٦ هـ — بعث يازيد إلى الخليفة العباسى بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة . ومع أنه لا يوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسى في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب يازيد الذى كتبه حوالى سنة ٨٠٣ هـ — سنة ١٤٠٠ م إلى تيمورلنك ذكره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة» الذين لجئوا إلى مصر ، ليدكر هذا الحاكم الفظ أنه لا تزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أو على الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التى يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك (٦) .

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩ هـ — ١٣٩٧ م حين وصل إلى القاهرة رسل السلطان يازيد ومعهم هدية للسلطان برقوق ؛ منها مائة أسير من الفرنج الفرنسيين ،

(١) المسقلانى : إنباء النمر ج ١ ص ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضى شهاب : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المسقلانى : إنباء النمر ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٠ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

(٥) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٥ أ .

(٦) Arnold : The Caliphate p. 105, D'Oshosson : Tableau De

L'Empire Othoman VI p. 233—234.

«الإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في البحر (١) ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بانتصار بايزيد الخامس على الفرنج في نيقوبوليس سنة ٧٩٨ هـ سنة ١٣٩٦ م (٢) .

بيد أن العلاقات بدأ يشوبها سوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر وأغار في أواخر شوال سنة ٨٠١ هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة (٣) . وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في تزعم العالم الإسلامي، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة، كما دل على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسية بين البلدين في تلك الظروف العصيبة التي أحاطت بالدولتين، وصار لهذا الخطأ أثره في نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية، وأرسل بايزيد يطلب محالفة السلطان فرج لصد خطر تيمورلنك رفض الأمراء الذين بيدهم الأمر مخالفته، مذكّرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١ هـ. ولم يدر السلطان فرج والأمراء أنهم بانتهاجم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمنّاها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة، وهي الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسائل مع جيرانه حتى غير تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً.

وإذ شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثماني والمملوكي زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م، وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التي لحقته من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك في واقعة أنقرة التي أسرف فيها بايزيد، والتي أباد بعدها عدة مدن عثمانية (٤) . وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانيين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية في شبه جزيرة آسيا الصغرى، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسرته كانت مخجلة حقاً، حتى إن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦ م) إما مصادفة أو بناء على خطة مرسومة لمدة ست سنوات حتى واقعة أنقره سنة ١٤٠٢ م لتحطمت قوة العثمانيين إلى الأبد، وربما تحقق حلم اتحاد الغرب بالشرق الأقصى ضد السلطنة المملوكية، ولأمكن استعادة الصليبيين للأراضي المقدسة (٥) .

(١) المسقلائي : إنباء الغمر ج ١ ص ٤١٤ .

(٢) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣ .

(٣) العمري : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

(٤) الزياتي : الترجمان المغرب ورقة ٩٠ .

(٥) راجع : Atiya : The Crusade In The Later Middle Ages :

p. 22.

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني أضاع هبة كل منهما في نظر الآخر . وأخرت هاتان الكارثتان اللتان منيت بهما الدولتان الاصطدام بينهما حوالي قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء . غير أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثماني محمد بن بايزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك ، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا في كثير من المناسبات (١) .

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧ هـ - يناير سنة ١٤٠٥ م أزال منافساً خطيراً من طريق العثمانيين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم في الشرق . وبدأ ميزان القوى في الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية . وأصبحت صداقة الدولتين صورية ، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر إذ صار كلما اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة (٢) وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهئة والتبريك ، حتى إذا شعر السلطان العثماني بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وأزالها سنة ١٥١٧ م .

وكما واجهت دولة المماليك الثانية في بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق ، فإنها واجهت مشكلات أخرى من جانب الغرب ، مرجعها أن التجارة في البحر المتوسط أصبحت احتكراً للبندقية التي تخلصت من منافستها جنوا (٣) . واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة . ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونيين ومن انضم إليهم من الروادسة والقبازصة . وشغلت أعمال القرصنة التي قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق . ومن ابنه فرج . ففي جمادى الآخرة سنة ٧٨٥ هـ - يولية سنة ١٣٨٣ م هاجم الجنوية صيدا وبيروت ، ونزلوا إلى البر (٤) . فاتجه اينال اليوسني أنابك دمشق إلى الساحل ، وحاول

(١) دحلان : الفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ١٩٩ وما بعدها .

(٣) Kirk : A short. Hist.Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال

القرصنة من جانب القبازصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠ م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم : بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البندقية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية . راجع عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٢ .

(٤) ابن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٩ .

أن يقذف بهؤلاء الفرنج في البحر حين احتموا بمراكبهم ، لولا أن أسرع لنجدتهم
الفرنج المقيمون في بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم (١) .

وفي الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوبية لتهدد
بضائع في مراكبهم من الإسكندرية (٢) . ويبدو أن فشل هؤلاء الجنوبية جعلهم يتجهون
إلى مهاجمة ثغرى رشيد ودمياط . غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرقة في ثغر رشيد
بقيادة الأمير أحمد بن يلبغا الخاصكي ، وفرقة أخرى في ثغر دمياط بقيادة الأمير ايدكار (٣)
فتعذر على هؤلاء الجنوبية غزو رشيد ودمياط ، ولذا أعادوا الكرة على ثغر بيروت
وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطر نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب
في طردهم (٤) .

وحين تكرر هجوم الجنوبية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق
سنة ٧٨٦ هـ - ١٣٨٤ م إلى الأمير الطنبغا الجوباني ببناء أغربة وشواني لغزو الجنوبية في
بحر الروم . غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب
على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧ هـ سنة ١٣٨٥ م ، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول
المملوكي من قتل عدد كبير من الجنوبية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم ، وقيل إن ثلاثة
بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسره . وبعد هذا الانتصار وصلت
الأغربة إلى بولاق في جمادى الآخرة سنة ٧٨٧ هـ - يونيه سنة ١٣٨٥ م بالأسرى
والغنائم حيث عرضوا على السلطان في اليوم التالي من وصولهم (٥) .

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوبية لم تؤثر في حصول بعض تجارهم على
ارتباطات تجارية وقنصلية (٦) . ولذا فإن الجنوبية لجثوا في سنة ٧٨٨ هـ - سنة ١٣٨٦ م
إلى مصالحة السلطان برقوق (٧) . ولم يتأخر السلطان في قبول الهدايا منهم حرصاً على
مصالحه التجارية في البحر المتوسط .

غير أن الجنوبية عادوا سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال برقوق

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٨ .

(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ .

(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ .

(٤) المقریزی : السلوك ج ٣ (خطية) ص ٤١٦ .

(٥) المسقلاني : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٤ .

(٦) Lammens : la Syrie, VII p. 36

(٧) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤٦٣ .

بالتزاع الداخلي مع الترك - إلى أعمال القرصنة ، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة في المياه السورية في مراكب مشحونة بالخراسك الذين جلبوا من بلادهم ، ومن بين هؤلاء الخراسك أنحت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه . فهاجم الجنوية مراكب السلطان ، وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من الخراسك ، فثار السلطان برقوق ، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج . سواء كانوا تجاراً أو قناصل أو رعايا ، ونهض نائب الإسكندرية في القبض على عدد كبير منهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١) .

وإذ تخرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوية وبين السلطان حتى اتفق الجنوية على أن يطلقوا من بأيديهم من الأسرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم ، وأسرع الجنوية بتنفيذ الاتفاقية ، وقدم بالأسرى الخراسك تاجر السلطان الخاص الخواجا علي بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق في آخر ذي الحجة سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م (٢) .

وفي سنة ٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م تحرك أسطول مكون من اثنتي عشرة سفينة جنوية ، وثلاث من صقلية وخمس من بيزا ، وهاجموا جميعاً ميناء طرابلس ، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركباً واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غرباً حيث استولوا على جزيرة Jerba في خليج قابس التابعة لأبي العباس أبي بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهدي وحاصروه ، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج ، وقتلوا الكثيرين منهم (٤) .

وفي عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانئ الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلي ففي سنة ٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بالبضائع المعدة للتصدير لمصر ، وأسروا من فيها ، وتوغل هؤلاء القراصنة في إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالي تمكنوا من اعتقالهم . وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجارية بالسلطين فإن هذا المركز تعرض للضعف في سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م حين تقدم اندريه جستنيان قنصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج ، عرض فيها مدى جهود البنادقة في إنعاش تجارة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ قسم ١ ص ٢٣ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) Atiya : Op. Cit. p. 398

(٤) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٦٥١ - ٦٥٣ .

(٥) ابن قاضي شهاب : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥ .

الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة ، وأنهم برغم هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء . ولم يكن قنصل البنادقة موقفاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه ، وأنهم (أى البنادقة) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد « بقوة الله » فإنهم في هذه المرة سيكونون « ذوى مكانة مرموقة » . أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكترائه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده ، لأن الغرب المسيحي منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من « بابا على حين اتحد العالم الإسلامى في اعترافه بشخص الخليفة الواحد » (١) .

أما جنوا فلما استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦ هـ ، وفي هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبازصة ، وذلك حين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها ، وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا . غير أن غرض De Boucicaut لم يكن كذلك ، بل إنه عزم على ضرب الإسكندرية ، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيچنان ملك قبرص وعقد معه الصلح (٢) . بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaut منذ أن وصل إلى رودس ، وأخذ أهبطه لصد الهجوم . أما De Boucicaut فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية — ذرا للرماد — سفينة بها سفيرين من لدنه أعلن أنهما جاءا لعقد الصلح مع السلطان . وحين علم السلطان بهذا النبأ أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين ، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaut إلى سفيره الآخر بالعودة إلى رودس . وأدرك De Boucicaut عدم جدوى هذه المفاوضات فاتجه بأسطوله ، وهاجم ميناء انطالية في آسيا الصغرى ، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية . ولكنه بعد أن قام بعملياته الحربية في ميناء انطالية عاد إلى فاما جوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية ، على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاما جوستا . غير أن حملته فشلت في الاستيلاء على الإسكندرية في أغسطس سنة ١٤٠٣ م بسبب استعدادات السلطان فرج (٣) . ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال في شوارع الإسكندرية مع الفرنج ، وكذلك فشل في إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية (٤) .

(١) Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XV S. pp. 83-84

(٢) De la ville de Roulx : La France En Orient, p. 422.

(٣) Piloti : Op. Cit. pp. 89—90

(٤) Ibid : p. 90

على أن De Boucicaut لم يكتف بفشله في الإسكندرية بل جرب حظه في طرابلس، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك، ولكنه فشل فيها حين هاجمها في ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣ م، فرحل إلى بيروت (١). وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من المسلمين بل من ناحية متاجر البنادقة. وبعد أن نهى راحل من بيروت مسرعاً إلى فاما جوستا غير أنه في الطريق اصطدم بأسطول البنادقة، الذى انتقم للرعايا البنادقة في بيروت (٢)، وهكذا عاد De Boucicaut بعد فشله الدريع في القيام بعمل واضح من أجل إعادة نشاط جنوا التجارى في منطقة شرق البحر المتوسط (٣).

على أن القبارصة — وأعنى الملك يوحنا لوزيجيان بالذات — يعتبر مستولاً عن الهجوم الذى شنّه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaut بأربع سفن قبرصية (٤). كما أنه في المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦ م وعد بتعويض التجار البنادقة في المدينة لما أصابهم من الخنوية (٥).

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً في السعى لعقد الصلح مع السلطان فرج رغبة في إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية. وفي هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧ م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الخنوية في مصر سيقبض عليهم جميعاً (٦).

وكما عادت التجارة مع جنوا، فلأنها عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨ م، وتوسط في هذا الصلح بيلوتى Piloti التاجر الكرىتى بمصر، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية. وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم (٧).

(١) كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) Piloti : Op. Cit. pp. 29

(٣) De Bouard : La France Et L' Italie p. 268

(٤) راجع المقرئى : السالك ج ٣ (شمسية ورقه ٤١)

(٥) Delaville La Roulx : Op. Cit. VI pp. 475—477

(٦) Piloti : Op, Cit. pp. 94—95

(٧) تعرضت الموانى المصرية لهجمات القراصنة القطلونيين، ونهبوا السفن الراسية فيها، وكثيراً ما لجئوا بأسلحتهم إلى قبرص وبعض جزر بحر إيجه وخاصة جزيرة ناكسوس. وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧ م أن هاجم القرصان بطرس القطلونى سفينة تجارية مصرية بحملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى جاك كريسبوس في جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية. وغضب السلطان فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها =

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة المماليك الثانية (١) ، واعتبروا سلاطينها ورثاء دولة المماليك الأولى في « ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين » (٢). فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية (٣) ، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة المماليك الأولى في صد الأخطار الصليبية التي تعرض لها المغرب كثيراً .

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ - سنة ١٣٨٢ م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية . وإذ احتاج السلطان برقوق للحياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق . ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصي بأولاد ابن خلدون رغبة في عودة ابن خلدون إليه ، أرسل إليه السلطان برقوق في ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ - ١٣٨٤ م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر (٤) وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد . غير أن سوء الحظ صادف السفينة التي وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبي العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق ، وأعادته إلى سلطانه بهديه من الملابس الفاخرة (٥) .

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه ، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢ هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة . وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه . واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة (٦) .

= وعاتبه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى . وصادر فرج سفيينة لبيدية كانت راسية بميناء الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس ، ووسط بيلوقي في هذه المهمة ، وحين نجح كافاه فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهرياً بدون ضرائب .
راجع : Miller : The Latins In The Levant : p. 399

- (١) ابن أبي السرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ٢٩١ .
- (٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
- (٣) Piloti : Op. Cit. pp. 57-87
- (٤) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ - ٢٥٣ .
- (٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
- (٦) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٥٢ .

وتظراً لكثرة حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول استمر وده لبلاد المغرب ، حتى إنه في سنة ٧٩٣ هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن علي بن غانم شيخ أعراب المهمل بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم — من ملوك بني مرين بفاس — سنة ٧٧٥ هـ — ٧٩٦ هـ (١) ، كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتاباً شفع له فيه ، وبعث إليه بهدية ، كما أوصاه بانتقاء الخيل له ، ووقيل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته ، وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق ، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦ هـ سنة ١٣٩٤ م ، وظلت الهدية حتى مات أبو فارس وتولى أخوه أبو عامر سنة ٧٩٩ هـ — سنة ١٣٩٧ م (٢) . فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن علي . وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشتري له الخيل . فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلي ، وكتب كتاباً إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص سلطان تونس ، وكتاباً إلى سلطان تلمسان من بني عبد الواد ، وكتاباً آخر إلى سلطان فاس . وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسى ، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية قاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من المنح (٣) . وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانه أبي زيان بن أبي حمو ، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانه من أحسن الجياد . ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان ، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه (٤) .

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز لها ، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز (٥) . وجرت العادة أن يولي السلطان المملوكي على مكة أميراً من أهلها وله حق عزله إذا ثبتت مخالفته لأوامره . بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده ، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية . واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمر قوي يدين له بالطاعة ، حتى يضمن أمان طرق التجارة في البحر الأحمر . وفي بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مشارق زراع بين الشريف أحمد بن عجلان وابني عمه

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٥) Piloti : Op. Cit. p. 41

حسن بن ثقبه وعنان بن مغامس ، فأشركهم جميعاً في إمرة مكة ، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقبه من ناحية ، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى ، فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق ، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة (١) . ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان في رشوة رجال مصر أو إرضاء السلطان برقوق بالهدايا ، بل إنه حين رأى كبيش — رسوله إلى مصر — إقبالا من رجال الدولة على عنان ، وافق على ما رسمته السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة ، وعرف أحمد بن عجلان بما دار في مصر ، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أو قتل عنان ، فقرر الرأي الأخير . وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقبه وإخوته الخمسة وقيدهم جميعاً سنة ٧٨٧ هـ — ١٣٨٥ م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم ، فإنه ماطل في تنفيذه وبقى الإخوة بالسجن . أما عنان فإنه تمكن من الهرب واستجار بالسلطان برقوق ، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض (٢) ، ورد عليه بقوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة (٣) . غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق ، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان ، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحه في الحجاز ، وتجارته في البحر الأحمر ، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر . غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين : أولهما ، عزم السلطان على التخلص منه ، وثانيهما ، خوفه من انتزاع أقاربه الولاية منه . ومهما يكن من شيء فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨ هـ — سنة ١٣٨٦ م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان في الطعام (٤) .

وحين مات أحمد بن عجلان في ٢٥ شعبان سنة ٧٨٨ هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخدع محمد بن أحمد بن عجلان ، الذي طالب السلطان بأن يخلف أباه ، بأن أرسل إليه العهد والخلافة بولاية مكة ، على حين أنه أذن لعنان في التوجه صحبة بعثة الحج (٥) . وأمر أمير الحج بقلعة مراعاته لعنان في الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر . والحلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد

(١) الفاسي : الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ١ ورقة ٢٤ ب .

(٢) نفس المرجع : والجزء ورقة ٢٥ ا .

(٣) الخزرجي : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣ .

(٤) De Gaury : Rulers of Mecca, p. 102

(٥) المرجع السابق والصفحة .

مائة يوم من موت والده كما ساعد قتاله على الاختفاء بين الحجاج ، ومكن عنان من تتولى إمرة مكة (١) .

غير أن عودة عنان إلى مكة لم يجد السلطان برقوق شيئاً ، إذ ظهر ضعفه من عدم قدرته على التغلب على ابن عجلان ، الذى أغار على جدة واستولى على ما فيها من أموال وغلال تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن ثقبه وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة ، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة (٢) . وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى "على" بن عجلان إمرة مكة . غير أن أصحاب عنان تحمسوا وامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان ، وتمكن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة ، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان . غير أنه طلب عناناً لخدمة الحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله ؛ ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان . ولم يجد السلطان بداً من أن يترك المسألة جانباً ، وأرسل سنة ٧٨٩ هـ - سنة ١٣٨٧ م إلى عنان يقول له « انت على بولايتك فافعل ما تقدر عليه » (٣) . غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين تنهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه (٤) فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠ هـ سنة ١٣٨٨ م إلى مصر ، حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل . وظل بها حتى عاد السلطان حاجبى إلى العرش وسعى عند يلبغا الناصرى لإعادته فأجابه . غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقدم محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة ، وحيس منطاش عناناً مع بعض ممالك برقوق سنة ٧٩١ هـ - سنة ١٣٨٩ م ؛ ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش هوفر إلى دمشق . وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر شفع بطا ، كبير ممالكه ، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار على بن عجلان على نصف إمرة مكة معه (٥) . واتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لحاجته ، فإذا قضاها خرج منها ولكل منهما فيها ثواب ، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المتحصل ؛ وبعضهم للحكم بها ، « وأن يكون القواد مع عنان والإشراف مع على » (٦) .

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة ، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان

(١) العيني : عقد الجنان ج ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٥ .

(٣) نفس المرجع ، ورقة ١٩٦ .

(٤) ابن قاضى شهاب : خيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨ .

(٥) De Gaury : Op. Cit. p. 103

(٦) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٦ ب ، ١٩٧ أ .

سنة ٧٩٤ هـ - سنة ١٣٩٢ م ، وهموا بقتله وأخرجوا نوابه من مكة ، فأنعدم الأمن في داخل البلاد . وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد . وإذ حضر علي وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى علي بمفرده ، وذلك بسبب ما قدمه علي إلى السلطان من الهدايا الوافرة (١) . ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر ، ورتب له ما ينفقه ثم عاد فسجنه بالقلعة في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م (٢) .

و حين قامت الحرب سنة ٧٩٧ هـ بين ابنى حسن وقواد مكة ببطن مر ، وقتل فيها الشريف علي بن عجلان ، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها بنى حسن ، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان ، الذى كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه ، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير يليغ السالمى ليتمكنه من تولى مهام وظيفته ، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التى نهيت في العام الماضى (٣) .

وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار ، وخاصة تجار السلطان ، وتجار اليمن . وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ويحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن ، كما أسقط عن التجار ثلث النهاية ، ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر ، وسر السلطان برقوق بجهود حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعتين سنة ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م (٤) .

وظل حسن بن عجلان على ولائه للسلطان برقوق ولائته فرج من بعده ، وأثرى من النشاط التجارى ثراء كبيراً ، حتى اقتنى عدداً كبيراً من الممالك سنة ٨٠٣ هـ . وفي العام الثانى أصبح لحسن بن عجلان من القوة والنفوذ ما جعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين ، فى أحدهما ألا يمنع الدعاء بمكة لسلطان اليمن ، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن ، وفى الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر فى أثناء السنة على صاحب مكة « يد ولا حكم » بل « يعضدونه » ويقرون كلمته ويعاون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالف وطلبكم للقتال قاتلوه » (٥) . ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه العوبة فى أيدي أمراء مصر الذين صار

(١) الخزرجى : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦ .

(٢) الفاس : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٧ أ .

(٣) كان السلطان برقوق قد أرسل قسماً إلى ينبع للبيع فاستولى عليه أميرها . - الفاسى

العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٥ أ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٦ أ .

(٥) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٧ ب .

بيدهم الأمر . وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير يسوق أمير الحج سنة ٨٠٤ هـ - سنة ١٤٠١ م (١) .

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصة حين استولى سنة ٨٠٥ هـ - سنة ١٤٠٢ م - على الذهب الموجود بمركب في طريقه إلى اليمن ، يملكه ابن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر ، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج عن عنان ليهدد به حسن بن عجلان ، ولكن المنية عاجلت عناناً قبل أن يصل إلى مكة (٢) ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان ، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨ هـ هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته . وفي سنة ٨٠٩ هـ - سنة ١٤٠٦ م - وافق على ما طلبه حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له في إمرة مكة ، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً في علاقة الدولة المملوكية الثانية بإمرة مكة . وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١ هـ - ١٤٠٨ م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات في الحكم ، وأن يلقب حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية (٣) .

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن سنة ٨١٢ هـ - سنة ١٤٠٩ م ، وما تبع هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج ، وأمره بالقبض على حسن وولديه . غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمرأه مصر وإرساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مثقال (٤) .

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالي في عهد دولة المماليك الأولى ، فإنه وجد نفسه مضطراً لتحمل سيطرة حكام مصر في عهد دولة المماليك الثانية . على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مدارة حكام مكة والاكتفاء بذكر أسمائهم في الخطبة وإرسالهم الهدايا (٥) .

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن ، وسبب هذا حرصه على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها . ووضعت هذه السياسة في تبادل الهدايا بين الدولتين . بيد أن السلطان برقوق هو الذي

(١) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م بسد النوافذ التي بالجانب الغربي من الكعبة : فأمر حسن بفتحها ، كما تحدها حين أمر بنقل السوق من المسعى فألغى قراره . راجع الفاسي : العقد الثمين ج ١ ورقة ١٥٧ ب .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ورقة ١٩٧ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٥٩ ب .

(٤) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٦١ ب ، ١٦٢ أ .

(٥) نفس المرجع ج ١ ورقة ١٦٣ ب .

بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧ هـ . سنة ١٣٨٥ م ثم توالى هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة في نهاية الدولة المملوكية الأولى (١) . ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩ هـ - سنة ١٣٩٧ م إلى السلطان برقوق . واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار ، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق ، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض ، وأربع مراوح مذهبة ، وعدد من العدد الحربية المذهبة ، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى والعود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار . وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمى برهان الدين المحلى (٢) .

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة في ميناء عدن التي أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب (٣) . بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة - من أجل تجارتهم في الحجاز - على حساب ميناء عدن . ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم في مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشى قوة أمراء مكة ، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلان حين قام بمحاولته سنة ٨١٢ هـ - سنة ١٢٠٩ م لغزو بلاد اليمن (٤) . وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة ، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمدىح الأرثوذكسى ، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية . ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطريق النصارى اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر في ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان (٥) .

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أُرعد سنة ١٣٨١ - ١٤١١ م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة في مصر والناجمة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ١٨٢ .

راجع كذلك السلاوى : مختصر التواريخ ورقه ٨٨ أ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٣ .

(٣) Piloti : Op. Cit. p. 42

(٤) Piloti : Op. Cit. p. 42

(٥) المقرئى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣ .

أسوان في أواخر سنة ١٣٨١ م ، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذى أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية ، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين ، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولا إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر عليه هذا الهجوم ، ويطلب منه العودة إلى بلاده ، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة . وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم الدمياطى (١) .

ويبدو أن الملك داود بن سيف أرعد حرص بدوره على اتصال الود (٢) . فلم يتردد في إجابة الطلب ، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة ١٣٨٢ م وبعث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون جملا ، واشتملت على طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صبيغ على هيئة الحمص (٣) . ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين في الحبشة ، وأكد أنهم في حالة طيبة ، وأن لهم مطلق الحرية في التنقل والكسب . وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك والنصارى ، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التي عزلوا منها كما يبين له أن حسن معاملة المسيحيين في مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين في بلاده والعكس . غير أن داود لم يكن موافقا حين هدد بتحويل مجرى النيل عن مصر . ولكن حرص السلطان برقوق على السلام بين الدولتين جعله يقبل الهدية ويرد عليها (٤) .

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر (٥) .

غير أن داود عاد في سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م ، وانتهاز فرصة الشحنة بين الأمراء في سلطنة فرج ، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع ، وقتل من أهلها من المسلمين عددا كبيرا (٦) .

على أن دولة المماليك الثانية الناشئة برغم هذا أسهمت بقسط كبير في تطوير الحياة في الحبشة ، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أرعد الذى تولى سنة

(١) المسقلاى : إنباء العمر ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) راجع : الحيمى سيره الحبشة ص ٢٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ (خطيبه) ص ٤٧١ .

(٤) راجع اسكاروس : نوابغ الأقباط ص ٤٨ - ٥٨ - انظر نص الرسالة بالملحق

رقم ٩ ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٥) المسقلاى : إنباء العمر ج ٢ ورقة ٢٥٣ أ ، ب

(٦) Budge : A Hist. of Ethiopia VI p. 300

١٤١٢ م فخر الدولة، وهو أحد رعايا دولة المماليك الثانية من القبط اليعاقبة، ورتب أمور مملكته، وتنظم له طريق جباية الأموال، كما أنشأ له ديواناً، ووضع له القواذين التي ضبطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشى يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء (١).

ويبدو أن هذا العمل الذي قام به فخر الدولة للملك الحبشة شجع على استمرار الاتصال بالحضارة المملوكية الجركسية فاستقدم عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا في وظائف «زردكاش» بمصر فعمل هؤلاء للملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقرئ أثر هذا التقدم في السلاح في الحبشة التي ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحرايب؛ إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشى فنون الفروسية من رمى النشاب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث في تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المماليك الجراكسة في تعليم الأحباش استخدام النمنط في الحروب (٢).

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنو كتر على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥ هـ - ١٣٨٥ م هاجم بنو كتر أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعيين الأمير حسين بن قرط التركمانى والياً على أسوان (٣). غير أنه كثيراً ما التجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠ هـ - ١٣٩٨ م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافقه على تعيين إبراهيم الشهابى والياً على أسوان، وأعادته إلى بلاده (٤). ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر فى عهد فرج بهجمات بنى كتر.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج وأواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

(١) المقرئى : الإلمام بأخبار من بارض الحبشة ص ٤-٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٤ .

(٣) العسقلانى : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٢٤ .

(٤) العيى : عقد الجان ج ٢٥ ورقة ٢١ .

ملاحق توضيحية
من مصادر عربية وفارسية

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسي شرف الدين علي يزدي (ح ١ : ص ٦٤٢ - ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥ هـ . ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق التتري إلى السلطان برقوق يدعو فيه إلى مراعاة حسن الجوار ، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة .

والملحق الثاني منقول من المؤرخ المصري أحمد بن علي المقریزی : «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثاني كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦ هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظي ، ويحتوي على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له .

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثاني من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن علي المقریزی : «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ ، وفي هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك . والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين علي يزدي (ح ٢ ص ٢٦٧) ، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك ، هو القائد أطلمش الذي وقع في يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هـ .

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج ، ومطالبته بإعلان الطاعة ، والدعاء له في خطبة الجمعة بالقاهرة . وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية ، وهو منقول كذلك من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين علي يزدي (ح ٢ ص

٣١٥ - ٣١٦ ص) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر ، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته ، وهو في الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة .

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (٢ - ٣ ص ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق .

والمُلحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (٢ - ٣ ص ٣٢٧) ، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال .

والمُلحق الثامن منقول من مخطوط ، «كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا ٦ ص ٢٤٦) ، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند ، وهذا الكتاب بالفارسية كذلك ، وتاريخه سنة ٨٠٥ هـ ، وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثماني في واقعة أنقره ، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له في خطبة الجمعة .

أما الملحق التاسع والآخر فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف» ، وهو مخطوط بمكتبة بطيريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ - ٣٣٩) ، وهو كتاب من النجاشي داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون في الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية ، وينفى النجاشي ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشي للرعايا المسلمين في بلاده ، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى في بلاده ويهدد بقطع مياه النيل ، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان للنصارى في مصر .

ويود كاتب هذه السطور أن يختتم هذه المقدمة القصيرة بكلمة شكر كبيرة للسيد الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بالقيام بترجمة النصوص الفارسية المتقدمة إلى اللغة العربية ، وهي نصوص أضافت إلى قيمة هذا الكتاب معلومات جديدة بصدد مراحل العلاقات بين السلطانين برقوق وابنه فرج وتيمورلنك .

وأرجو أن يجد القارئ الكريم في هذه الملاحق بعض ما ينشده من معرفة لأحوال الشرق الأوسط في أوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

الملاحق (١)

كتاب من تیمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين علی یزدی : ظفرنامه ، ١٥ ، ص ٦٤٢-٦٤٣) .

النص الفارسی :

«مضمون رسالت آنکه بیش ازین بادشاهان کامکارکه از نسل جنکیزخان بودند باملوك آن ممالك منازعت داشتند وبدان واسطه بسی زحمت وتشویش باهالی شام وسكان آن نواحی مبرسید ودر آخر مبان ایشان رسل ورسایل متوا ترشد وقضیه بمصالحات انجامید وآن معنی موجب امن وامان عالم وعلمیان کشت وجون بادشاه سعید ابو سعید بها درخان انارالله برهانه بجوار رحمت حق بیوست واز نسل جنکیزخان با دشاهی صاحب شوکت نافذ فرمان در ایران نماید وملوك طوایف بدید آمدند هرج ومرج بحال عالم راه یافت این زمان چون سابقه عنایت بی غایت مالک الملوك جل وعلا تمام ممالك ایران تا عراق کدر جوار آن مملکت واقع است مسخر فرمان ما کودانید خیر اندیشی ونیکو خواهی خلایق اقتضای آن می کنند که حق همسایگی رعایت کوده ابواب مراسله و مکاتبه مفتوح کرد دوا یلجیان ازهر د وجانب در آمد وشد باشند تا راهها ایمن شود وتجار جانبین بامن وحضور تردد توانند نمود وابن معانی هرابنه مستلزم معمور می بلاد وآسایش عباد تواند بود والسلام علی من اتبع الهدی والحمد لله رب العالمین » .

ترجمة الكتاب :

«لما كان بيت جنکيزخان في حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام ، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاق الرسل ، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين ؛ غير أنه منذ وفاة الایلخان العظيم سعید أبوسعید بهادر لم يحکم في بلاد فارس حاکم من نسل جنکيزخان الذي نظم أمور الناس ، ولكن علی العکس قام حکام في کل الإمارات في هذه الامبراطورية الکبيرة مکان ملوکها ، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية . أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد ، وأدان لسيفنا المظفر کل بلاد فارس والعراق العربی الذي تتأخم حدوده حدود بلادکم ، فإن المحبة التي ندين بها لشعبنا تتطلب بحکم الجوار أن نتبادل الكتب ،

وأن يأتي الرسل ، ويعودوا في يسر بين بلدينا ، وأن ينتقل تجار البلدين في أمن حتى تنتعش البلاد ، ويكثر السكان ، ويعيشوا في سلام . ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلائكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين . »

الملحق (٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثاني) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦ هـ (المقرىزى ، أحمد بن علي : السلوك صور شمسية ج ٣ ص ٢٣٧ - ٢٣٨) .

« قل اللهم مالك الملك » (١) فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢) .
اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي (٣) ، ولا نرحم لباكي (٤) ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا . قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها ، وملكنا بالشوكة أزمتها ، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل (٥) فقل له :

إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٦) ،
وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا ، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسننتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال ، وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام — وعزنا أبدا لسؤدد منقام ، فمن سالمنا سلم ، ومن رام حربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم ، فلا تلوموا (٧) إلا أنفسكم ، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ،

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٢ ، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦) .

(٢) القرآن الكريم : سورة الزمر : ٤٦ .

(٣) ، (٤) كذا في الأصل .

(٥) كذا في الأصل .

(٦) القرآن الكريم : سورة النمل : ٣٤ .

(٧) كذا في الأصل .

ودعائكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم ، وقد أكلتم الحرام ، وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددت لكم النار وبئس المصير : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا^(١) ، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك ، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء ، وأرقتم دم الأشراف ، وهذا والله هو البغى والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادى عليكم : فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ^(٢) ، فأبشروا بالمدلة والهوان ، يا أهل البغى والعدوان ، وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزیزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكم الخطاب ، فأسرعوا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء ، وتضرع الحرب نارها ، وتضع أوزارها ، وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادى منادى الفراق : فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ^(٣) ، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً ، هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا^(٤) . وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْأَبْلَغُ الْمُبِينُ^(٥) ، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام »

(١) القرآن الكريم سورة النساء : ١٠ .

(٢) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠ .

(٣) القرآن الكريم سورة الحاقة : ٨ .

(٤) القرآن الكريم سورة مريم : ٩٨ .

(٥) القرآن الكريم سورة النور : ٥٤ .

الملحق (٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦ هـ :

(المقرئى ، أحمد بن على : السلوك ، صور شمسية ، ج ٣ ص ٢٣٨)

» بسم الله الرحمن الرحيم

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ

مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ^(١) حصل الوقوف على ألفاظكم

الكفرية ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنايبية وسيرة الكفرة
الملائكية ، وأنكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ،
وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبدة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ،

فذلك أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ، وتكفيكم
هذه الشهادة الكافية ، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ

مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ^(٢) ،

ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعمت ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا خبركم
من حين خرجتم ، أنكم كفرة ، ألا لعنة الله على الكافرين ، من تمسك بالأصول فلا
يبالي بالفروع . نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب ، ولا يضرنا ريب ، القرآن علينا
نزل ، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل ، فتمحقنا نزوله ، وعلمنا ببركة تأويله ، فالنار

لكم خلقت ، ولجلودكم أضربت ، إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ^(٣) ، ومن أعجب

العجب تهديد الرتوت^(٤) بالرتوت^(٥) ، والسباع بالضباع ، والكمأة بالكراع .

نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية ، وسيوفنا يمانية ، وليوثنا مصرية ، وأكفنا

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران : ٢٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة الكافرون .

(٣) القرآن الكريم : سورة الانفطار : ١ .

(٤) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط) .

(٥) كذا في الأصل .

شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعم
 البضاعة ، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ، وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
 أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
 وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١) . وأما قولكم : قلوبنا
 كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه
 القليل من الضرم ، كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 مَعَ الصَّابِرِينَ^(٢) . الفرار الفرار من الرزايا ، وطول البلايا ، واعلموا أن
 هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا سعداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء ،
 فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ^(٣) . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ،
 تطلبون منا طاعة ، لاسمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف
 الغطاء ، ففي نظمه تركيك ، وفي سلكه تلييك ، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد
 بيان ، أكفر بعد إيمان ، أم اتخذتم لها ثان ، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع
 ربكم ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ
 الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا^(٤) ، قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف
 مقالته ، وصل كتابك كضرب رباب أو كطين ذباب ، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
 وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ^(٥) ، إن شاء الله تعالى [لقد

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة : ٢٤٩ .

(٣) القرآن الكريم : سورة المائدة : ٥٦ .

(٤) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩ - ٩٠ .

(٥) القرآن الكريم : سورة مريم : ٧٩ - ٨٠ .

خَلَطْتُمْ فِي الْأَمْرِ فِي الَّذِي أُرْسِلْتُمْ [(١) وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ (٢) وَالسَّلَامُ] .

الملحق (٤)

كتاب تیمورلنك إلى السلطان فرج كته من ملطية في شهر المحرم سنة ٨٠٣ هـ
(شرف الدين على يزدي : ظفرنامه ٢ ، ص ٢٧٦)

النص الفارسي :

«أزیدرت انواع جرکات نابسنديده بظهور آمد ازا نجله بقتل ابلجیان ابن جانب
بی موجی فرمان داد و اتمش را که از بند کان درگاه ماست محبوس کردانید
وباز نفرستاد وجون اولباس حیات عاریتی باز سپرده ، برشش و جزای او بدیوان
قیامت افتاد و تومی باید که بر خود و اهالی مملکت رحم کنی و اتمش را دوزمان روانه
ابن طرف سازی تا از ظلام قهر و انتقام سیاه خون آشام ماروز سلامت اهل مصر و شام
بشام نرسد و اکربوسوسه شیطان بلحاج و عناد خلاف ابن معنی بخاطر راه دهی
جميع آن دیار و بلاد از مرور و عبور عساكر منصور و بران هشد و وزر و وبال خون
و مال مسلمانان بکردن توخوا هد بود »

ترجمة الكتاب :

« لقد بدرت من والدك حرکات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب ،
وحبسه أطمش الذي كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه . ولما أسلم والدك وديعة
الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى الباري يوم القيامة . وينبغي عليك أنت أن ترحم
نفسك وأهل مملكتك ، وأن تعيد أطمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام
جيشنا الذي يتحرق إلى الثأر . وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان
اللجاج و عناد الخلاف ، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور
عساكرنا المنصورة وعبورها فيها . وسيكون وزر و وبال دماء المسلمين وأموالهم في
عنقك »

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تفری بردی النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة
سنة ١٩٥٦) .
(٢) القرآن الكريم : سورة الشعراء : ٢٢٧ .

الملحق (٥)

كتاب تیمورلنك إلى السلطان فرج فی جمادی الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم
تیمورلنك لحصار دمشق (شرف الدین علی یزدی : ظفرنامه ، ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦)
النص الفارسی :

« اثار حزم وعزم مادر کارها دانسته اید وعلو همت مادر تحصیل مطالب و اتمام
ما قصد و مآرب شناخته و عاقلان دانند که دا من کبر مردان در امور غیرت است
و حمیت اکرباد شاه است و اگر رعیت و مقصود اصلی بادشاهان از کشیدن لشکر
و کشادن کشور با آن همه خوف و خطر رعایت ناموس است در حال و بقاء ذکر
جمیل در مال نه مجرد جمع مال و تکثیر منال » بیت »

« همه کار جهان ناموس و نام است »

« و کر نه نیم نان روزی تمام است »

یکرات اُتلمش را طلب داشتیم و نفر ستادید و دران جزری قضیه جنندان تعلل و تأخیر
کردید که دست حمیت عنان عزیمت ما باینجانب تافت و بسی خرابی و خلل باحوال
و اوضاع مردم این مملکت راه یافت » بیت »

کز از کوه برسی بیابی جواب که شاخ خطا میوه ندهد صواب

با ابن همه اگر اُتلمش را ارسال نمایید و سکه و خطبه بالقاب ما بیارایید تا بساط نزاع
در نور دیده شود و برخود رحم کرده باشید و براهالی ابن دیار و کر نه لشکر جرار
خونخوار ما را قتل مخالف و قهر دشمن و شهر گرفتن و کندن رسم معهود است و غایت
مقصود » نظم »

« طریق مدارا و راه ستیز »

« کزان امن خیزد و زین و ستخیز »

« نمودم بتو عقل را کار بند »

« وزین هر دوره کن یکی رابند »

ترجمة الكتاب :

« لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا فی الأمور ، وعلو هممتنا فی تحصیل المطالب ،
و اتمام المقاصد و المآرب ، وإن العقلاء لیعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من
للغیرة و الحمیة ، سواء كان الرجال ملوکا أو من أفراد الشعب . وإن الهدف الأصلي

للملوك من قيادة الجيوش وفتح الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس في الحال وبقاء الذكر الجميل في المال ، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال .

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب ، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز

وقد طلبت أظلمش مرات ، ولكنكم لم ترسلوه وتعلمتم بعلم واهية لتأخير إرساله ، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادكم ، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم .

« إذا نطق الصخر ، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً »

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أظلمش ، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا ، وطويت بساط النزاع بيننا ، ورحمت نفسك وأهل ديارك ، لانتهى كل شيء ، وإلا فإن جيشنا ابحرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين ، ويقهر المعاندين ، ويستولي على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود .

« هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج »

« الأول يؤدي إلى الأمن والثاني يؤدي إلى الحرب »

« وقد أظهرت لك العقل فانتصح »

« واختر طريقاً من الطريقين »

الملحق (٦)

جواب السلطان فرج علي كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة

٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه ج ٢ ص ٣١٧)

النص الفارسي :

« ما بند كان در مقام اطاعت وانقياديم واثلمش راتاينج روز ديكر بفرستيم واكر انحضرت ازسر جرايم ما دركدرد بعد ايزن در اقامت وظايف فرمان بردارى وطاعت كذارى تقصير واهمال جايز نداريم وبآنجه در مكنت وتوان ما كنجد رضاي شريف بند كان ايشان بدست آريم عواطف بادشاهانه »

ترجمة الكتاب :

« نحن عبيد في مقام الطاعة والانقياد . وسنرسل أطمش في خلال خمسة أيام . فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر ، وإظهار الخضوع وسنعمل كل ما في مكتتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية » .

الملحق (٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدي : ظفرنامه ، ج ٢ ص ٣٢٧)
النص الفارسي :

« آنچه دی روز واقع شد غوغای عام بود بی اختیار ما جمعی جهال و اوباش از نادانی جسارت نمودند و سزای خود دیدند ما بر همان عهدیم که عرضه داشت کرده ایم اگر لشکر امروز مصاف موقوف دارند و بسلامت فرود آیند فردا هرجه فرمان انحضرت باشد کاریند شویم و بعد از تقصیرات گذشته حسب المقدور قیام نماییم » .

ترجمة الكتاب :

« إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا ، إذ أن جمعا من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم . ونحن باقون على العهد الذي عرضناه ، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم ، فإننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به ، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور » .

الملحق (٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥ هـ (ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٦ ، ص ٢٤٦) .

النص الفارسي :

« بنصرت إلهی و عنایت بادشاهی تمام مملکت روم در تحت تصرف و تسخیر بندگان درگاه ما قد ارکرفت باید که سکه و خطبه ولایت شام و مصر به و لقب هما یون زیت ما وزینت دهد و اطمش رادر زمات بدرگاه عالمیناه روان سازد و اگر دسین

أبواب تغافل جانيز دانديفين داندكه رايت نصرت مال بعد إذ مراجعت ازديار روم متوجه مصر وان مرزوبوم خواهد شد هرجه دردل اشم كتم توداني بعد از اين وقد أعذر من أنذر .

ترجمة الكتاب : « أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله ، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم ، وأن تطلقوا سراح اطلمش في الحال ، وترسلوه إلى بلاطنا الذي هو ملجأ للعالم ، وإذا تغافلت في هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها . وقد قلت كل ما في نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك . وقد أعذر من أنذر .

الملحق (٩)

كتاب من النجاشي داود إلى السلطان برقوق : (ضمن مجموعة سيرة برلام ويواصف : مخطوطه بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ - ص ٣٣٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالي المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام . ملك الأنام ، الخاص منهم ، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره . ورفع لواءه ومناره . ومحا بعدله أسباب الظلم وآثاره ، وجعل الفضل بالعدل شعاره . أما بعد رحمة الله تعالى ، يقلد ملك أرضه من يشاء من عباد ، وحافظ عدل أوليائه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده ، نحمده على ما أولانا من جزيل نعمائه . فنشكره شكراً على جزيل آلائه ، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصيص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة . إنه على ما يشاء قدير ، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك ، وأنهم منصورون من الله تعالى في تصرفاتهم ، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين ، ويتعمدون العدل ، والإنصاف في عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين ، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين ، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ العهود لأولياء العهد ماداموا عليه حافظين ، وإنصاف المظلوم من الظالمين . السلام عليكم سلاماً جزيلاً وافراً كما يليق لعظيم سلطانكم . السلام على أمراء دولتكم

الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم
أجمعين . آمين .

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم ، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيتته وأحكامه
غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة ، واتفاق سائر الملوك
والأمراء ، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية
فجلوسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد
والشكر ، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين . وفتحنا أبواب
السبل للتجار والمسافرين وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم ، وفى الوصية بأولادكم والتجار
الكارمية وغيرهم فى البر والبحر ، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية
لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم ، وبالحفاصة ما كان بين الملك
الشهيد الأكل عبد سنون جدى ، وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون من المحبة والاتفاق
وما كان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريك وإخوتنا النصارى
بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية . والآن فقد
ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومربينا البطريك أنبأنا عوس بطريك الإسكندرية
والديار المصرية والحبشة والنوبة على يد الأسقف المكرم إبراهيم ورفقته ، وكتابكم
الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء . فقابلناهما ثم قابلناهما
بالإكرام والتبجيل ، وهما يتضمنان أن قوماً أنهما عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين
المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول فى ديننا بالجبر والقهر ، وأنهم
فى أمور صادرة ، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغى لمن له النظر فى تدبير المملكة الإسلامية
ومقابلة القوم المنفيين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين ، لأن هؤلاء
القوم المذكورين الذين أنما هم مقيمون فى بلادنا راضين غير مكرهين ،
وكانوا فقراء فصاروا تجاراً مثقلين ، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية
ولاحق ولا مكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد يكرمون . ومن اختار منهم
الإقامة ببلادنا ، فلا نمنعه من ذلك ، وأما الإكراه على الدخول فى ديننا فهذا غير واجب
فى كتبنا ، وإن اتفق شئ من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية ، وأما إحساننا
لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين . أول ذلك بحر النيل المبارك
الذى يجرى فى بلاد الحبشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جرياتها للديار المصرية بعيدة
صعبة المسالك . ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها ، ثم
يصرفونها إلى أماكن أخرى ، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها ،
ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحيها ، والكور والمدن الإسلامية لأجل
من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية

والمسافرين إلى الأقطار الحجازية ، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بجرأ وبرأ . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذنين ، وتقفية آثار المعتدين . وأما طرق الإقامة بالبلاد الحبشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادقين أو واردين ، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده في البلاد مع وسعها وكثرة أهلها ، فهو على نفسه وماله من الآمنين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وبيلادهم التي تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين . وكل من توفي منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله ، ونسلم إليهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم ، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلاشكوى ، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهي واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهموا إليكم بما قد طالعتمونا به لا يعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك ، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً ، والقطيعة التي عليه في كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحد من الأمراء مثل ما تفعلون مع العربان ببلادكم ولكن أسألوا من التجار المترددين إلى بلادنا عن أخبارنا . وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا . وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى في أيام والدي الملك الأعز سيف أرعد ، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريك ، وإخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها ، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة في أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان ، وحصل في حقهم ما لم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين . إذا وجهنا بهم إليكم تقابلوهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام ، وتسمعون منا ما سألناكم فيه وتجيئوننا عنه بالقول ، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين ، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمثة وغير ذلك . فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أرعد ، وامتنع عنك وعن مراسلاتكم ، وكان في عقابه بدا من جهتكم مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا ما يحصل من مصالح لكم من جهتنا إذا نقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا حبل الوصل عنكم وصرمناه .

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا ورأسنا ورئيسنا السيد الأب البطريك ، فإننا تحت طاعته ولانستطيع مخالفته . والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الحصييين بنا ، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتي ، وزرع الأمانة بمحل ماري سعادته

بمحل اخرسطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التي تليق بملككم . وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أيينا البطريك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التي أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة . فإن كنتم تقرؤهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألناكم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك . ومهما فعلتموه مع أيينا البطريك وإخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم مطالبون بما يأتيهم . أعاذكم الله من ذلك . ولا بد من أن عظمتكم علمتم من التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف وعدهم الله فى آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به ، وكيف يسهل لنا الطرقات ولا يخفى على علمكم ما نطق به الكتب . ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا فى توزيع مجارى النيل المبارك وصده عن الديار المصرية ما لم يكشف لأحد من الملوك المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازن الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا ، والواصلون إليكم من رسلنا تقابلونهم بما يليق بملككم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسبحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة . وقد بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفرا أخرجوه من كنيسته وذكروا أنه عند بعض الأمراء فى بيته ، والقصد من سياستكم تشرفون بإرسال الشهيد المشار إليه صحبة رسلنا وواحد من رعوس بلاد المسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله وفقهاء البلاد ، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين على الخيول والبغال المثمنة . ولكن نحن منتظرون ما يرد علينا من الأخبار على يد رسلنا سريعا فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا ، خيرا كان أو شرا . وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به . وجماعة من رسلنا أيضا تخصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين ، وهذا غير واجب فى الشريعة ولا جرت به عادة فى زمن المسلمين السالفين .

وبلغنا أيضا من المترددين إلينا أخبار الملك ، وما هو عليه من العدل والإنصاف ، والإحسان والشفقة على سائر خلقه الله تعالى فسررنا بذلك كثيرا ، وفرحنا الفرح الكامل

بما خصكم الله تعالى من الجلوس على كرسي المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم . ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطريك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التي أخذتموها وعلمتموها مساجد بغير حكم حق فتعيدونها لهم ، وتأمرؤا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والأراخنة الذين منهم ، والكتاب الذين في الدولة ومن تجرد منهم على عوائدهم التي كانت في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخوتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم . ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطريك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم في أعلى كتابنا ، ومهما يحل بهم يكون الذي كان السبب فيه مطالباً بدمائهم . ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أسماؤهم :

سلطان سنقرا وأقاليمه . سلطان كترأ وأقاليمه . سلطان من وأقاليمه . سلطان فانا وأقاليمه . سلطان أنون وأقاليمه . وبأرض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين . سلطان بر بأرض نوحا وأقاليمه . سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا . سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً . سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا . وسلطان دفاه . فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتي . سلطان سرجه وأقاليمه . سلطان أحواره وأقاليمه . سلطان أريحا وأقاليمه . سلطان كثرأ وأقاليمه سلطان أمرا وأقاليمه . سلطان ترحموا وأقاليمه . سلطان باراتا وأقاليمه . فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك . وأما الذمة الذين في وسط بلادنا فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى . وإننا ما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلا ليعلم علمكم بذلك ويستدرك فارطه في رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد . فمتى والعياذ بالله لم تجيبونا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم ، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم — لكن أجروا أبانا البطريك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التي كانت في أيام السلطان محمد بن قلاوون . والمرجو من الله تعالى لإصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب ، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه ونحن لطفه ، فإنه سابق مرأحمه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمي بلادكم وكل من يلوذ بكم وبمقامكم الشريف . ونشكر الله تعالى على الدوام في مدى الليالي والأيام أجمعين آمين .

المراجع

أولا - المخطوطات العربية

ابن أبي السرور ، محمد بن السيد (١٠٨٧ هـ) :

أ - عيون الأخبار ونزهة الأبصار - دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢ :

ب - النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية - دار الكتب القاهرة
برقم ٢٢٦٦ تاريخ .

ابن أبيك ، أبو بكر عبد الله : (ق ٨ هـ) :

كنز الدرر وجامع الغرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ .
ابن بهادر ، محمد بن محمد (القرن ٩ هـ) :

فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، جزءان ، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩
تاريخ .

ابن تغري بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤ هـ) :

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٣ مجلدات - دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ .
ابن حبيب ، الحسن بن عمر (+ ٧٧٩ هـ) :

درة الأسلاك في دولة الأتراك ؛ ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ ح .
ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد (+ ٨٠٩ هـ) :

الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين - النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة
برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ .

ابن قاضي شهبة ، أبو بكر أحمد بن محمد (+ ٨٥١ هـ) :

ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب
بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ .

الأسدي ، محمد بن أحمد :

التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار — دار الكتب بالقاهرة رقم ٥٤٨٦ تاريخ :
البسطامي ، عبد الرحمن بن محمد علي (+ ٨٤٣ هـ) :

مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع .
البغدادى ، أحمد بن عبد الله (١١٠٢ هـ) :

عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان — مصورة في مجلدين بدار
الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ .

الخزرجى ، عبد القادر بن محمد الأنصارى (ق ٩ هـ) :

درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة — دار الكتب بالقاهرة
برقم ٣٧ م .

الخطيب ، علي بن داود (ق ٩ هـ) :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان — نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب بالقاهرة
برقم ١١٦ م . وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤ تاريخ .

الزيانى ، أبو القاسم عبد الله (ق ١٣ هـ) :

الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤ تاريخ .
السلامى ، شهاب الدين أحمد (ق ٩ هـ) :

مختصر التواريخ — دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ) :

تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ .

الصفدى ، صلاح الدين خليل ، (+ ٧٦٤ هـ) :

(أ) أعيان العصر وأعوان النصر — ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة
برقم ١٠٩١ تاريخ .

(ب) الوافى بالوفيات — ١٧ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩ تاريخ .

الطيب ، أبو محمد بن عبد الله (ق ١٠ هـ) :

قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر — ٣ أجزاء في ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب
بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ .

العسقلاني ، أحمد بن حجر (+ ٨٥٣ هـ) :

(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر — جزءان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

(ب) تاريخ المائة التاسعة — مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ .
العيني ، بدر الدين محمود (- ٨٥٥ هـ) :

(أ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان — في ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة
برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة) .

(ب) السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد — دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤
الفاسي ، أبو الطيب محمد بن أبي العباس (+ ٨٣٢ هـ) :

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين — ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ .
القدسسي ، محمد أبي حامد (ق ٩ هـ) :

دول الإسلام الشريفة — ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ .
الكتبي ، عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) :

عيون التواريخ — ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ .

المقدسسي ، مرغى بن يوسف (+ ١٠٣٣ هـ) :

نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين — بدار الكتب بالقاهرة
برقم ٢٠٧٦ تاريخ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (+ ٨٤٥ هـ) :

(أ) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ، ج ٤ النسخة الخطية بدار الكتب
بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ .

(ب) المقنى الكبير — ٤ مجلدات مصورة برقم ٥٣٧٢ تاريخ .

(ج) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار — دار الكتب
القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية ، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزي .

النويري ، أحمد بن عبد الوهاب (+ ٧٣٢ هـ) :

نهاية الأرب في فنون الأدب — من ج ١٨ حتى ج ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة
برقم ٥٤٩ معارف عامة .

النويرى ، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندرى (+ ٧٧٥ هـ) :
الإمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ فى مجلدين
بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ .

الهيثمى ، أبو العباس أحمد بن حجر (+ ٩٧٤ هـ) :
إتحاف إخوان الصفا بنبد من أخبار الخلفاء — دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ .
بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ هـ) :

(أ) التحفة المملوكية فى الدولة التركية — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ .
(ب) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ .
يوساب ، أسقف فوه (ق ١٥ م) :
كتاب تاريخ البطارقة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادى النطرون .

ثانيا — المخطوطات الفارسية

ميرخواند ، محمد بن خواندشاه (ق ٩ هـ) .
كتاب روضة الصفافى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء — ج ٦ مخطوط بجامعة القاهرة
برقم ٩٧٨ فا

ثالثا — المصادر العربية المطبوعة

ابن أبى الفضائل ، مفضل :
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد — نشر E. Blochet (باريس
١٩١١ — ١٩٣٢ م)

ابن الشحنة :
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب .
ابن الطوائى ، حسن بن حسين (ق ٩ هـ) :
الترجمة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية (القاهرة ١٢٩٤ هـ) :
ابن العماد ، عبد الحى (+ ١٠٨٩ هـ) :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٨ جزءاً (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

- ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (+ ٨٠٧ هـ) :
- تاريخ الدول والملوك ج ٧ ، ج ٨ ، ج ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ م)
- ابن إياس ، محمد بن أحمد (+ ٩٣٠ هـ) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ، ج ٢ (بولاق ٣١١ هـ) .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو الحسن يوسف (+ ٨٧٤ هـ) :
- (أ) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي - ج ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦ م) .
- (ب) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة حتى - ج ١٢ (سنة ٨٠٨ هـ) طبعة دار الكتب بالقاهرة ٩٣٠ - ١٩٥٦ ، طبعة كاليفورنيا ج ٥ ، ج ٦ ، ج ٧ (١٩١٥ - ١٩٣٩) .
- (ج) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور - نشر . Popper (كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٣١) .
- (د) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة - كبرد ج ١٧٩٢ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٤ هـ) :
- (أ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا - نشر محمد بن تاييت الطنجي (القاهرة ١٩٥١) .
- (ب) المقدمة .
- (ج) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - ج ٥ ، ج ٦ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
- ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهري (+ ٨٧٣ هـ) :
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . نشر . Ravaisse (باريس ١٨٩٤ م) .
- ابن عربشاه ، شهاب الدين محمد بن أحمد (٨٤٦ هـ) :
- (أ) عجائب المقدور في أخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .
- (ب) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء (بولاق ١٢٩٠ هـ) .
- ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+ ٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية - ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ هـ) :

- ابن ممتى ، أبو المكارم بن سعيد (+ ٦٠٦ هـ) :
- كتاب قوانين الدواوين — نشر عطية (القاهرة ١٩٤٣) .
- أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (— ٧٣٢ هـ) :
- المختصر في أخبار البشر (الاستانة ١٢٨٦ هـ) .
- اسكاروس ، توفيق :
- نوابغ الأقباط بالقاهرة في القرن التاسع عشر — ج ٢ (القاهرة ١٩١٠) .
- الإسحاقى ، محمد بن عبد المعطى (القرن ١١ هـ) .
- لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (القاهرة ١٢٩٦ هـ) .
- الأنصارى ، أبو عبد الله :
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بطرسبرج ١٨٦٦ م) :
- الجبلى ، عبد الرحمن (١٢٣٧ هـ) :
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار — ج ١ (بولاق سنة ١٢٩٧ هـ) .
- الذهبي ، أبو عبد الله (+ ٧٤٨ هـ) :
- دول الإسلام — جزءان في مجلدين (الهند ١٣٣٣ هـ) .
- الحيمى :
- سيرة الحبشة — نشر الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٥٨) .
- الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن :
- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (القاهرة ١٩١١ م) .
- السيخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (+ ٩٠٢ هـ) :
- (أ) التبر المسبوك في ذيل السلوك (بولاق سنة ١٨٩٦ م) .
- (ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — ١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٣—١٣٥٥ هـ) .
- السلامى ، أحمد بن خالد :
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ (القاهرة ١٣١٢ هـ) .
- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (+ ٩١١ هـ) :
- (١) تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

(ب) حسن المحضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

(ج) نظم العقبان في أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧) .

الشوكاني ، محمد بن علي اليمنى (+ ١٢٥٠ هـ) :

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جزآن (القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) .

العرينى ، دكتور السيد الباز :

الفارس المملوكى - بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس (١٩٥٦) .

العزاوى :

تاريخ العراق بين احتلالين جزآن (بغداد ١٩٣٥ م - ١٩٣٦ م) .

العسقلانى ، أحمد بن علي بن حجر (+ ٨٥٣ هـ) :

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ٤ أجزاء - حيدر آباد الهند ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ .

(ب) رفع الأصر عن قضاة مصر - ج ١ (تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين - القاهرة ١٩٥٧) .

القرمانى ، أبو العباس أحمد (+ ١٠١٩ هـ) .

أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢ هـ) .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد (+ ٨٢١ هـ) :

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣) .

(ب) ضوء الصبح المسفروجنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦ م) .

الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ) :

فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣ هـ) :

المقريزى ، أحمد بن علي (+ ٨٤٥ هـ) :

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة - نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال .

(ب) الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥ م) .

(ج) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦ م) .

(د) السلوك لمعرفة دول الملوك - ج ١ ، ج ٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨) .

(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ) :

النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب (+ ٧٣٢ هـ) :

نهاية الأرب في فنون الأدب من ج ١ حتى ج ١٧ (القاهرة ١٩٢٣) .

حاجى خليفة :

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ليبزج ١٨٣٥) .

خريطة القاهرة والوجه البحرى الدولية .

دائرة المعارف الإسلامية .

دحلان ، أحمد بن زينى :

الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

رشدى ، راسم :

مصر والشراكسة (القاهرة ١٩٤٨) .

رمزى ، محمد :

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٤)

زترستين :

تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ (باريس ١٩١٩) .

زيادة ، دكتور محمد مصطفى :

(أ) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٤٩) .

(ب) نهاية السلاطين المماليك فى مصر - بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع

مايو سنة ١٩٥١

سرور ، دكتور محمد جمال الدين :

دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة ١٩٤٧) .

صالح بن يحيى ، (ق ٩ هـ) :

تاريخ بيروت - نشر لويس شيخو (بيروت ١٩٠٢ م) .

- عاشور ، دكتور سعيد عبد الفتاح :
- قهرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .
- عزت ، يوسف :
- تاريخ القوقاز .
- فريد ، محمد :
- تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢ م) :
- كرد علي ، محمد :
- نخطط الشام — ٤ أجزاء (دمشق ١٩٢٧) .
- مؤلف غير معروف :
- كتاب قهر الوجوه العابسة بذكر نسب البحراكسة من قریش (بولاق ١٢٨٧ هـ) .
- مؤلف غير معروف :
- مراصد الاطلاع في أسماء الأماكن والبقاع (ليدن ١٨٥٠ — ١٨٥٩) .
- هازارد ، أ.و :
- أطلس التاريخ الإسلامي — ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة .
- ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (+ ٦٢٦ هـ) :
- معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة ١٩٠٦ م) .
- رابعاً : مراجع فارسية مطبوعة
- خواندا مير ، غياث الدين بن همام (ق ١٠ هـ) :
- حبيب السير في أخبار أفراد البشر ج ٣ (١٢٨٣ هـ) .
- بزدی ، علی شرف الدين :
- ظفر نامه ج ١ ، ج ٢ (کلکتا ١٨٨٧ م) .

خامساً — مراجع أجنبية

- Arnold, T.W. : The Caliphate, Oxford, 1924.
- Atiya, A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
- Ayalon, D. : Studies on the Structure of the Mamluk Army. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1, 1954.
- B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956.
- C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S. 1949.
- Browne, E.G. : Literary History of Persia. VIII, Cambridge 1951.
- Bouvet, L. : L'Empire Mongol, Paris 1927.
- Brockelman, C. : History of Islamic Peoples, London 1949.
- B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and Berlin) 1898-1902.
- Budge : A History of Ethiopia VI, London 1928.
- Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1 and 111, 1954.
- De Bouard, M. : La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris 1936.
- De Clanvijo, R.G. : Embassy to Tamerlane, London 1859.
- De Gaury, G. : Rulers of Mecca, London 1951.

- Delaville Le Roulx, J. : La France en Orient au XIVème siècle, 2 Vol., Paris 1886.
- Demombynes, G. : La Syrie à l'époque des Mamelouks Paris 1922.
- Devonshire, L. : L'Egypte Musulmane, Paris 1926.
- D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris 1824.
- Dozy, R. : Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.
- Dussaud, R. : Topographie Historique de la Syria Antique et Médiévale, Paris 1927.
- Encyclopedia of Islam.
- Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlane, California 1952.
- Gibbons, H.A. : The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford 1916.
- Grousset, R. : L'Empire des Steppes, Paris 1939.
- Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levant, 2 Vols., Leipzig 1885.
- Hitti, Ph. K. : History of the Arabs, London 1937.
- Huart : Histoire des Arabes, 2 Vols., Paris 1913.
- Ibn Arab Shah: Tamerlane or Timur the Great Amir, Eng. tr. by Sanders J.H., London 1936.
- Ibn Iyas : Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G. Wiet, Le Caire 1945.
- Iorga : Notes et Extraits pour servir à l'Histoire des Croisades au XV siècle, T. 11, Paris 1899-1916.
- Journal Asiatique (J.A.).
- Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).
- Kevork, A. : Armenia and the Armenians, New York 1920.
- Kirk, G.E. : A Short History of the Middle East, London 1949.

Lamb, H. : La vie de Tamerlane. Trad. de l'anglais par Robert P.J.

Lammens, H. : La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.

Lane-Pcole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.

Le Strange, C. : A) Clavijo Embassy to Tamerlane, London 1918.

B) Palestine under the Moslems, London 1890.

Malcolm, J. : History of Persia, London 1815.

Malet and Isaac : L'Histoire du XIV, XV et XVI siècles, Paris 1927.

Miller : The Latins in the Levant, London 1908.

Morgan, J. : Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.

Muir, W.E. : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.

B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, Oxford 1902.

Oman, C.W.C. : The Byzantine Empire, London 1915.

Piloti, E. : L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

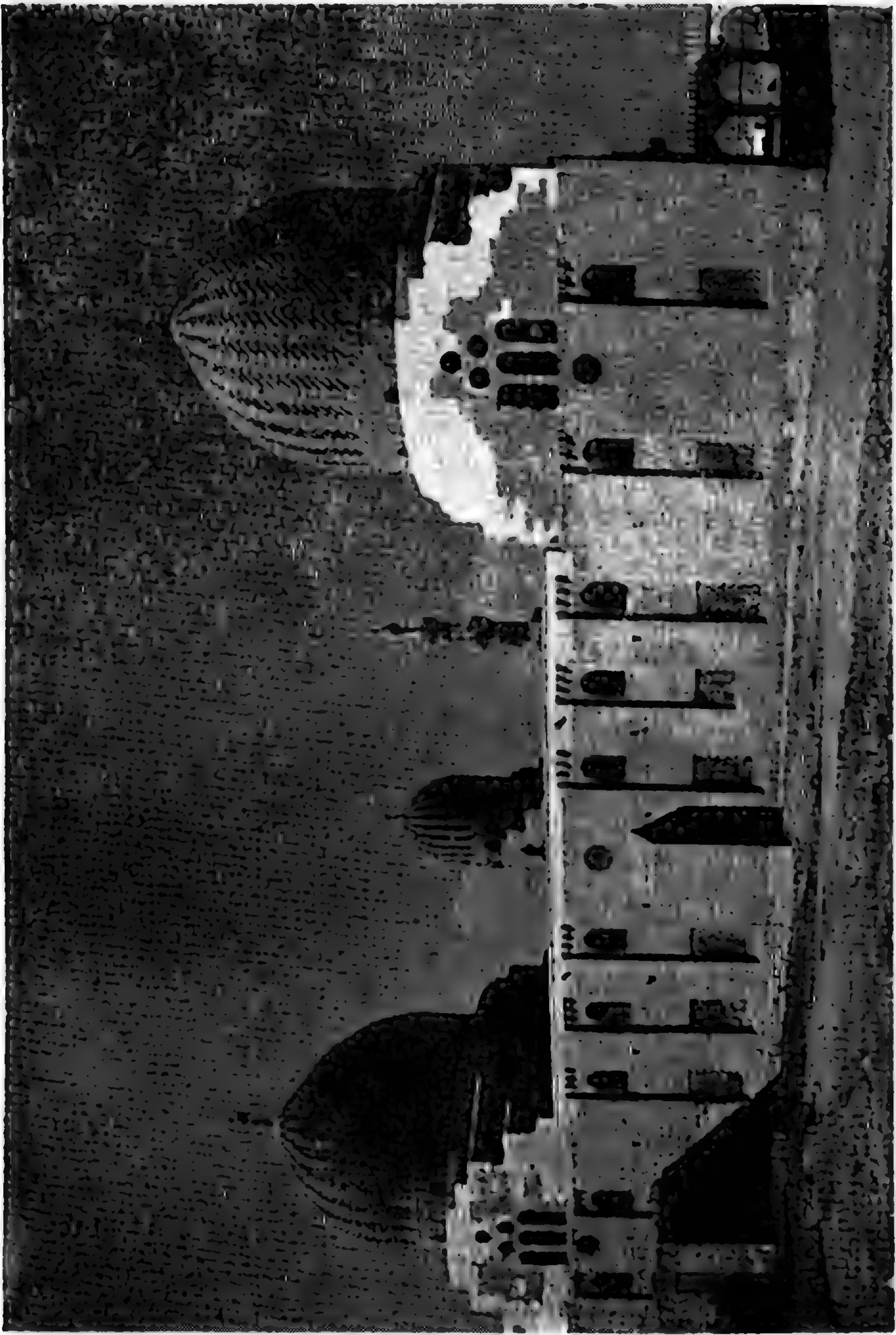
Poliak, A.N. : A) Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractère Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

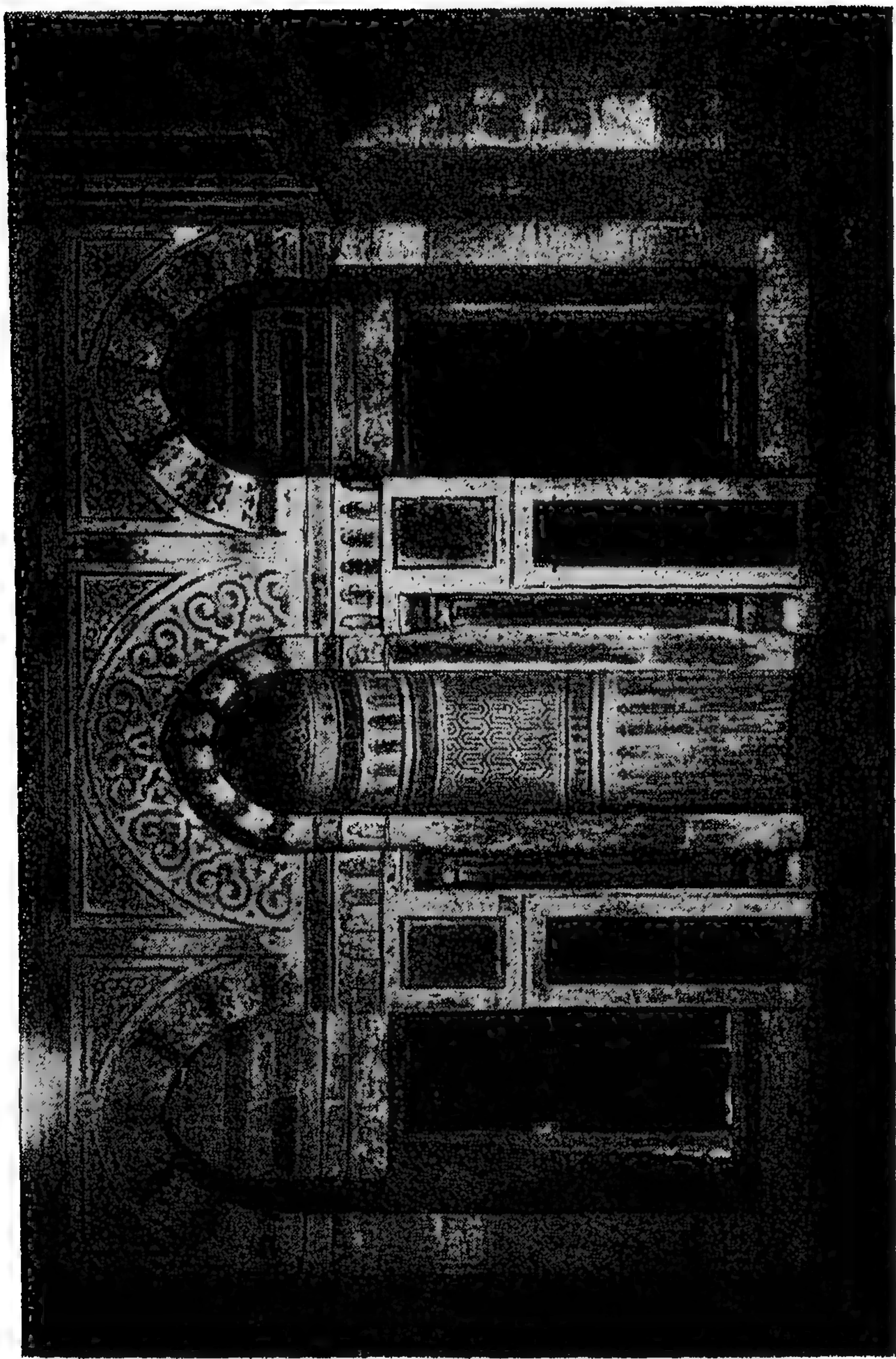
C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

Price, D. : Memoirs of the Principal Events of Mahommedan History from the Death of the Arabian Legislator to the

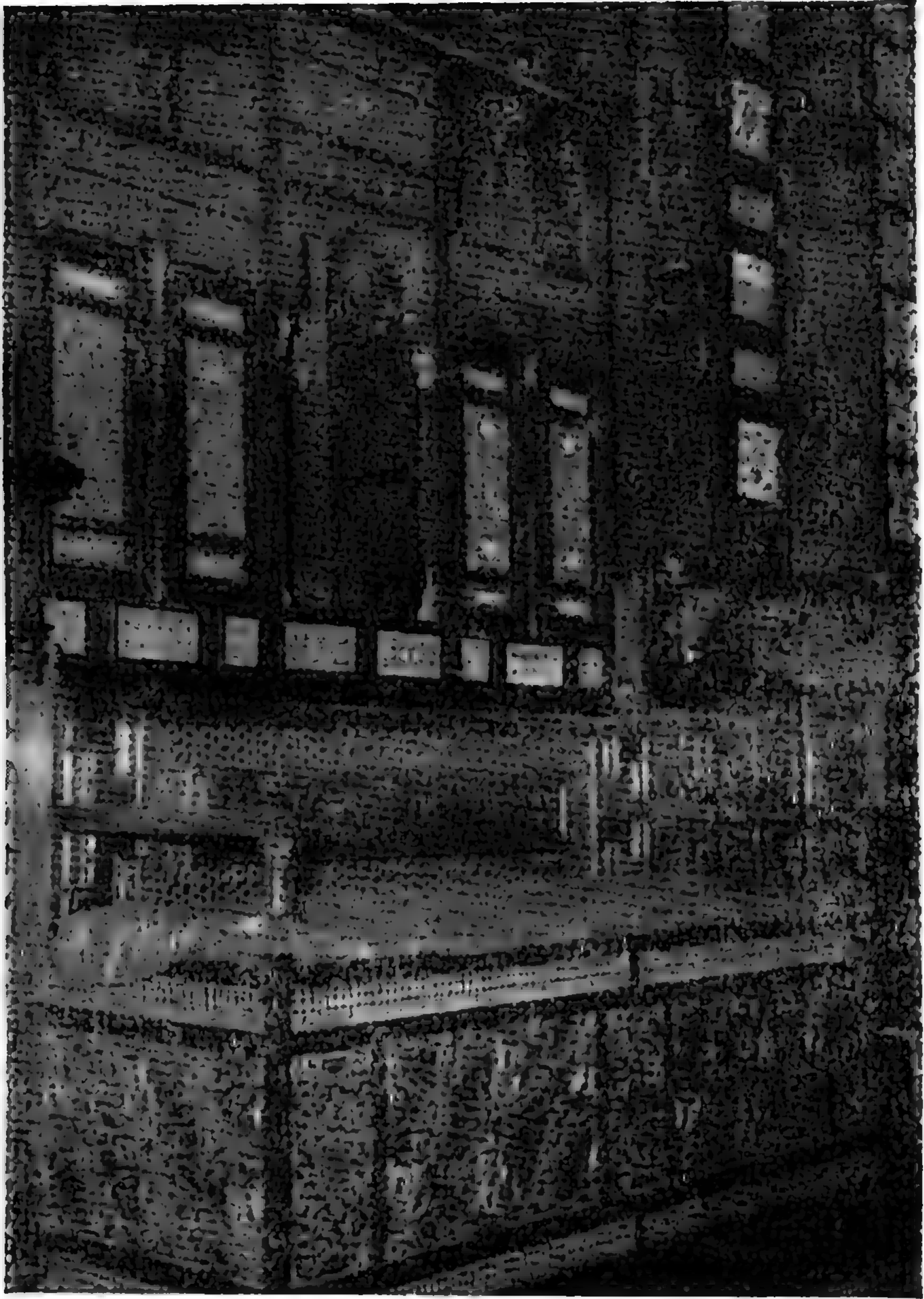
- Accession of the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.
- Quatremere, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.
- Sauvaget, J. : Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.
- Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V, LVIII, 1879.
- Sykes, P. : A History of Persia VII, London 1951.
- Thoumin, R. : Histoire de Syrie, Paris 1929.
- Wiet, G. : Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.
- B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.
- C) Biographie du Manhal Safi.
- Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII
En. Trans by Darly, London 1723.
- Ziadeh, N. : Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beirut 1953.



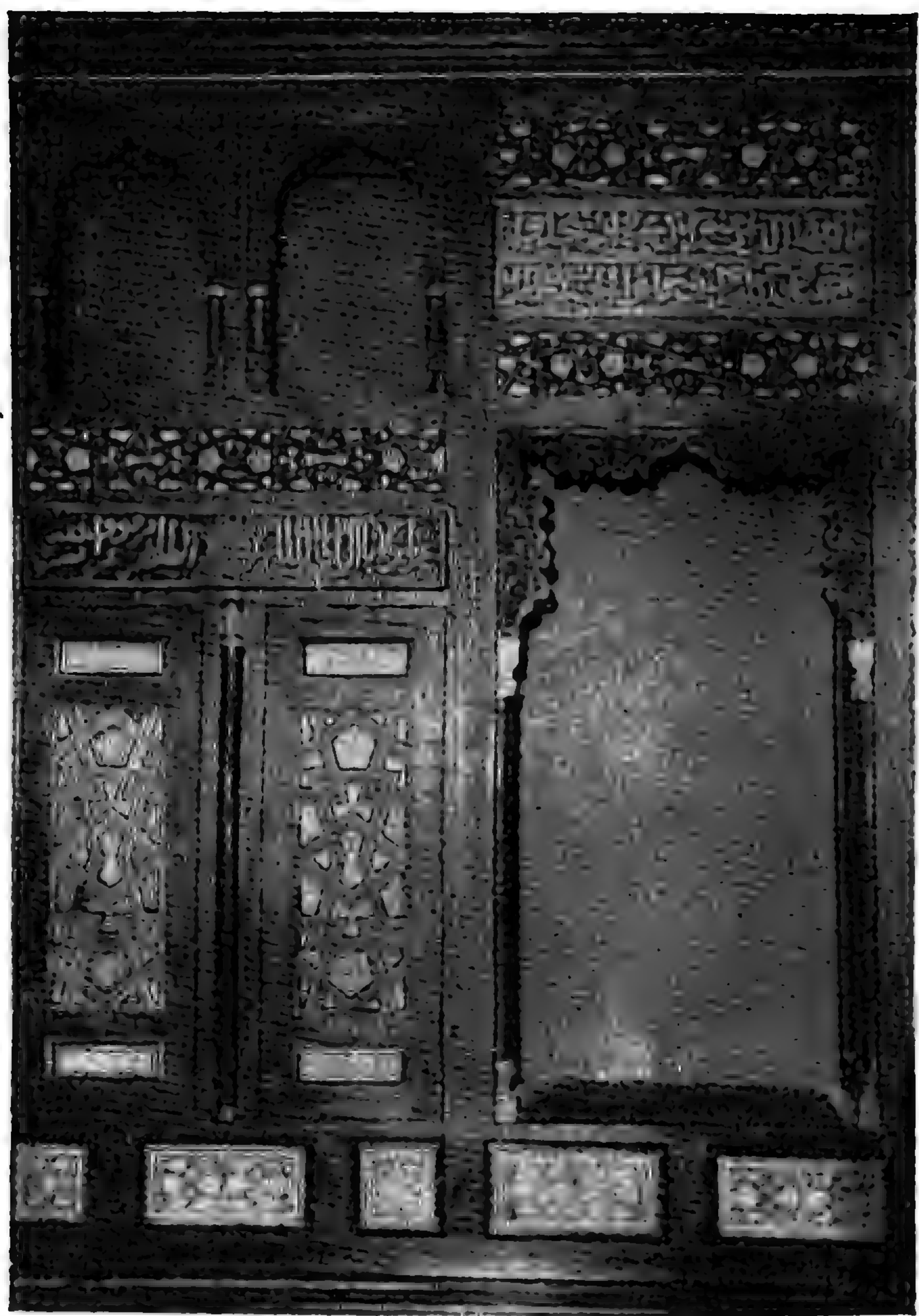
الصورة (١)
واجهة مسجد السلطان برقوق بالصحراء



الايوان الشرقي لزاوية السلطان فرج بن برقوق
الصوره (٢)



الصورة: (٣)
عرش السلطان برةوق

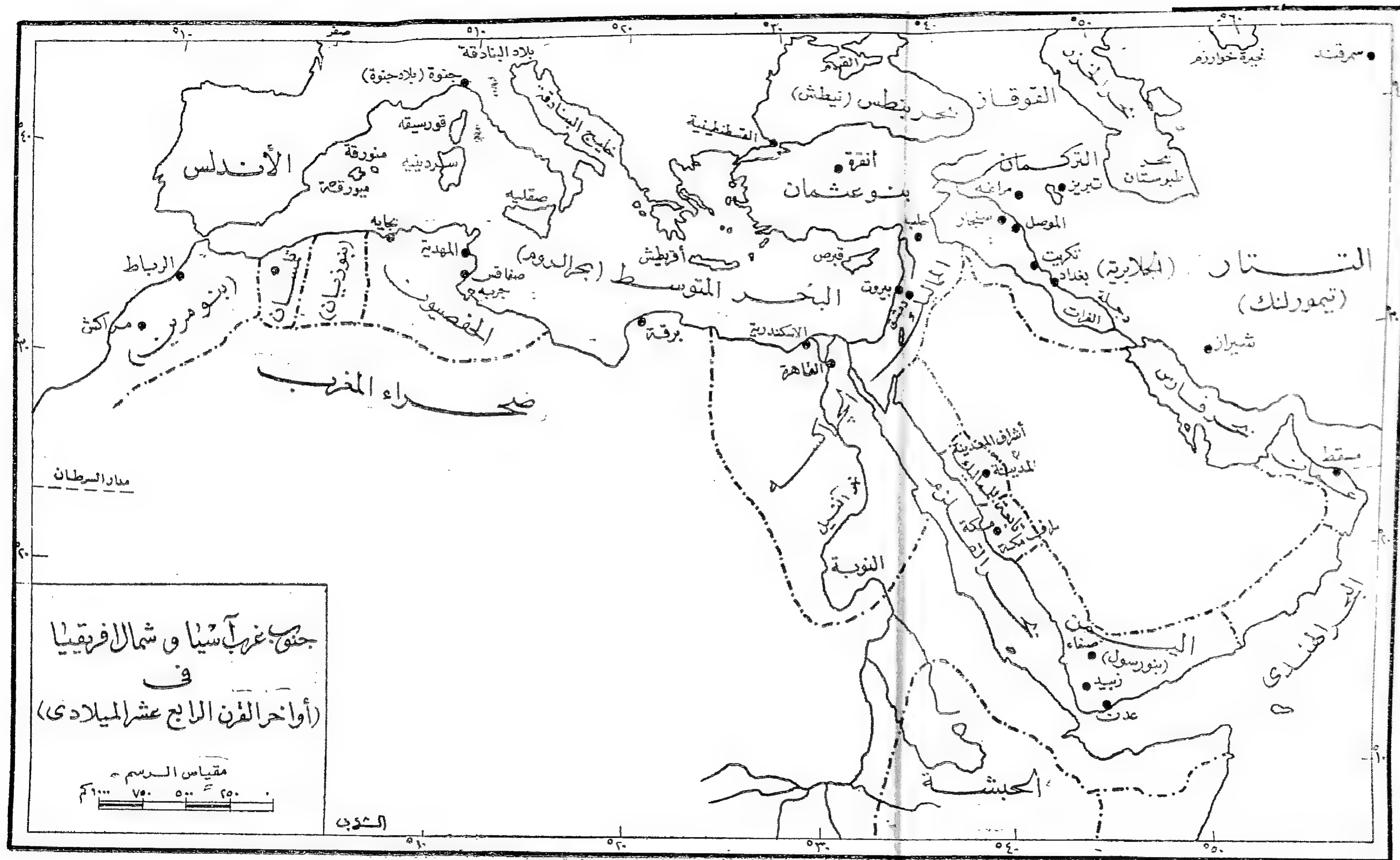


التصويرة (٤)

الجزء العلوى من عرش السلطان برقوق وفيه كتابة منقوشه باسم هذا السلطان

[illegible]

البحر المتوسط (بحر الروم)



المحتوى

الصفحة

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة	٥
مقدمة المؤلف	٧
الفصل الأول : أصول دولة المماليك الثانية	١١-٣٥
بداية تكوين فرقة المماليك البرجية	١١
الجنسية الجراكسية الغالبة بينهم	١٢
العناية الخاصة بهم	١٣
إقامتهم في أبراج القلعة وطبائعها	١٣
عدد هذه الفرقة	١٣
ازدياد عددهم زمن السلطان خليل بن قلاوون	١٣
التغيرات الجديدة في تربيتهم	١٣
موقفهم من مقتل خليل سنة ١٢٩٣	١٤
علاقتهم بسلطنة الناصر محمد في تلك السنة	١٥
انضمام البرجية إلى الوزير الشجاعى ضد نائب السلطنة كتبغا	١٥
خلع الناصر محمد وسلطنة كتبغا المغولى سنة ١٢٩٤ م	١٧
معارضة البرجية للسلطان كتبغا	١٨
سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦ م	١٩
معارضة البرجية للسلطان لاجين وقتله على أيديهم	١٩
إعادة الناصر محمد إلى السلطنة سنة ١٢٩٨ م	٢٠
ازدياد نفوذ البرجية في الجيش المملوكى	٢٠
أثرهم في سلطنة بيبرس الجاشنكير سنة ١٣٠٧ م	٢١
ازدياد المماليك الجراكسية في صفوف البرجية	٢١
المنافسة بين المماليك الجراكسية والمماليك الترك وإعادة الناصر محمد على أيدي الترك	٢٤
اضطهاد الناصر محمد للجراكسة في سلطنته الثالثة	٢٦
ثورات الجراكسة زمن السلطان شعبان بن الناصر محمد سنة ١٣٤٥ م	٢٨

٢٩	حركاتهم ضد الترك زمن السلطان حاجي بن الناصر محمد سنة ١٣٤٦
٢٩	ازدياد نفوذ الجراكسة زمن السلطان حسن سنة ١٣٤٧ م
٢٩	انضمامهم إلى جانب أخيه أمير حسين
٣١	ظهور الأمير يلبغا العمرى التركى واقتناؤه المماليك الجراكسة
٣٣	انقسام اليلبغاوية ومقتل يلبغا سنة ١٣٦٧ م
٣٣	النزاع بين اليلبغاوية وبين السلطان شعبان بن حسين وطرد اليلبغاوية من مصر سنة ١٣٦٨
٣٤	ظهور برقوق الجركسى
٣٤	انضمام بقايا اليلبغاوية بالقاهرة إلى جانب السلطان شعبان
٣٤	نجاحهم في إعادة اليلبغاوية المطرودين
٣٥	سيطرة اليلبغاوية على الجيش

الفصل الثانى : الأمير برقوق اليلبغاوى ونهاية دولة المماليك الأولى ٣٧ - ٦٠

٣٧	جلب برقوق إلى القاهرة سنة ١٣٦٣ م
٣٨	دخول برقوق فرقة اليلبغاوية
٣٨	اشتراك برقوق في ثورة اليلبغاوية على السلطان شعبان ونفيه إلى الكرك
٣٩	عودته إلى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣ م
٤٠	قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦ م وتولية ابنه أميراً على السلطنة
٤٢	الصراع بين اليلبغاوية والمماليك السلطانية
٤٢	سيطرة اليلبغاوية على الوظائف العامة
٤٢	تعيين برقوق في منصب الأمرة المملوكية في خدمة اينبك البدرى
٤٢	استئصال برقوق للشحناء بين زعماء اليلبغاوية
٤٢	تولية اينبك البدرى الأتابكية سنة ١٣٧٧ م
٤٣	ترقيته برقوق إلى أمير طبلخانة
٤٣	طمع اينبك في السلطنة سنة ١٣٦٧ م وفشله
٤٣	تحريض برقوق للمماليك الترك على اينبك
٤٤	المنافسة الخفية بين برقوق واينبك والتخلص منه

الاتفاق بين اليلغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة	٤٤
تعيين برقوق في منصب أمير أخور	٤٤
استبداد برقوق وبركه بالأمر دون يلبغا الناصري	٤٥
وصول برقوق إلى منصب الأتابكية سنة ١٣٧٧ م	٤٦
تعيين أقاربه في وظائف الدولة	٤٦
التنافس بين برقوق وبركه واشتداد النزاع بين الترك والخراسكة	٤٦
مؤامرة في صفوف الخراسكة سنة ١٣٧٩ م	٤٦
إثارة برقوق للعامة على بركه	٤٧
انتصار الخراسكة بزعامة برقوق وسجن بركه	٥١
ثورة العرب ضد الخراسكة	٥٣
اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الخراسكة	٥٤
وفاة السلطان علي بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١ م	٥٤
تولية حاجي بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١ م	٥٤
اتجاه برقوق نحو العامة	٥٦
تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢ م	٥٨

الفصل الثالث : حكم السلطان برقوق ٦١-٩٢

مشكلات سلطنة برقوق	٦١
ثورة العلنغا السلطاني التركي نائب الأبلستين سنة ١٣٨٢ م	٦٢ ٧٤
طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣ م في السلطنة	٦٢
كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦ م	٦٤
ثورة المماليك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨ م	٦٤
إعلان السلطان برقوق عداوة للترك ومحاولته قتل يلبغا الناصري	٦٦
توحيد صفوف الترك لمقاومة الخراسكة	٦٨
إعلان الصراع بين الترك والخراسكة	٦٩
معركة دمشق بين جيش برقوق والمماليك الترك سنة ١٣٨٩ م	٧١
عودة جيش برقوق منهزماً إلى القاهرة	٧١

الصفحة

٧٥	استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩ م
٧٥	خلع برقوق وإعادة السلطان حاجي إلى الحكم
٧٨	عوامل انقسام الترك على أنفسهم
٨٠	النزاع بين منطاش ويليغا الناصري
٨٥	خروج السلطان برقوق إلى الكرك وإلى دمشق سنة ١٣٨٩ م
٨٨	انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق
٩٠	عودة السلطان برقوق إلى القاهرة وخلع السلطان حاجي
٩٣-١٢٠	الفصل الرابع : استقرار دولة المماليك الثانية
٩٣	سياسة برقوق نحو الترك
٩٤	الصلح بين برقوق ويليغا الناصري
٩٥	بقاء قوة الترك في دمشق واستعانتهم بالعربان
٩٥	قضاء يلبغا على معظم المماليك ^{١٠١} الترك
٩٧	عودة الخصام بين يلبغا ^{١٠٢} وأسرى وبرقوق
٩٩	ذهاب السلطان برقوق إلى دمشق سنة ١٣٩١ م
١٠١	القبض على يلبغا الناصري وقتله
١٠١	فرار منطاش وعودة برقوق إلى القاهرة
١٠٢	تطهير القاهرة من الترك
١٠٣	القبض على منطاش وقتله
١٠٣	مطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة
١٠٤	محاولة العربان إقامة الشريف العنابي سلطاناً سنة ١٣٩٤ م
١٠٥	موقف السلطان برقوق من باقي الثورات العربية
١٠٧	فشل مبدأ وراثة العرش في دولة المماليك الثانية
١١٠	الصيغة المملوكية الجديدة
١١٧	التغيرات في نظم الحكم والإدارة

١٦٢-١٢١ م ١٤١٢	الفصل الخامس : دولة المماليك الثانية وجيرانها حتى سنة ١٤١٢ م ١٦٢-١٢١
١٢١	ظهور تيمورلنك في الشرق الأوسط ١٢١
١٢٢	علاقته بدولة المماليك الثانية ١٢٢
١٤٦	موقف السلطنة المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ١٤٦
١٤٩	دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوية والروادس ١٤٩
١٥٤	سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد المغرب ١٥٤
١٥٥	برقوق وفرج وإمارة مكة ١٥٥
١٥٩	اليمن والسلطنة المملوكية الثانية ١٥٩
١٦٠	علاقة السلطان برقوق بالمبشة والنوبة وأثرها ١٦٠
١٦٣	ملاحق البحث ١٦٣
١٦٨-١٦٧	الملحق ١
١٧٠-١٦٨	الملحق ٢
١٧٢-١٧٠	الملحق ٣
١٧٣-١٧٢	الملحق ٤
١٧٤-١٧٢	الملحق ٥
١٧٥-١٧٤	الملحق ٦
١٧٥	الملحق ٧
١٧٦-١٧٥	الملحق ٨
١٨٩-١٧٦	الملحق ٩
١٩٣-١٨١	المراجع
١٩٦-١٩٥	صورة ١
١٩٨-١٩٧	صورة ٢
٢٠٠-١٩٩	صورة ٣
٢٠٢-٢٠١	صورة ٤
٢٠٤-٢٠٣	خريطة الدول المعاصرة لقيام دولة المماليك الثانية
٢٠٦-٢٠٥	خريطة جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٤٨ —

(٣٣)

التأليف

[٣١]

الأدب

مصحح

القاهرة

١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م







